هدى بركات

زائرات



دار المطبوعات الشرقية

إهداء ٢٠١٠

لمرحوم / محمد بن على الذعفس

المملكة العربية السعودية

زائرات

هدى بركات

الطبعة الأولى
١٩٨٥ م

منشورات
دار المطبوعات الشرقية
بيروت

الى جوليا

أمي

هدى

I ـ سلوى والتمارين:

تمرين ١: أو سلوى في بيتها.

تمرين ٢: أو سلوى في السرقيس.

تمرين ٣: أو سلوى في المستشفى تلد.

تمرين واحد

أو سلوى في بيتها

كانت سلوى تشعر بعد أن ترد الباب وراء زوجها والأولاد بشيء من الفخر وهي تنظر في فراغ الشقة. . . تبتسم ابتسامة عريضة وهي ترفع الفطور وتحمل الصينية الى المطبخ.

لنقل إن سلوى كانت على الأرجح تحس بثقل خفيف في النصف الأسفل من ساقيها ولا تفتأ تلك الصورة تعاودها: إنها صخرة في وسط بحيرة متوسطة الإتساع. . صخرة تغمرها المياه الخضراء منذ عصور، تكتسي بطحالب سرية، ولا يظهر منها فوق المياه سوى رأس صغير مسنون. .

لا بد أن هذا كله يعني الثقة بالنفس. .

كانت سلوى بعد أن ترد الباب على فراغ الشقة تحس ثقة بالنفس عارمة. فهي الفارس الوحيد لساحة هذه الفوضى التي تبدو قدراً لا يتزحزح. فسوف لن تستوي الشمس في ظهيرتها حتى يستحيل كل هذا هباء. .

والحق يقال إن سلوى لم تعد وحدها تماماً بعد أن أصبحت على قدر من الحنكة وتعرفت الى كثير من أنواع الأدوية المنظفة التي صارت كعصافير «ثليجة» البيضاء في كتاب الصبي. . تدخل من الشبابيك وفتحات الجوارير والخزائن الخفيّة لتجعل من سلوى سيدة

الغبار، ملكة الهباب ولصوص الزوايا . . .

ها سلوى تدخل كزوبعة الدعاية الى الغرفة، تشتم ملابس الليل وتلقي بها أرضاً . . تضرب الشرشف الأخضر ضربتين متتاليتين فينتظم مذعناً . . تنثر فقاقيع الصابون فوق المجلى فينسرب الحليب ممتزجاً بالقهوة الى المواسير الخفيّة كقط مذعور . . ترفع قميص نومها من الجانبين وتشكله تحت سروالها الداخلي . . تنزلق شحاطتُها خارج الحمام . . يخبط ماءُ الحنفية المغسلة متناثراً . . تمسح وجهها بكمّها . .

ها هي تقف متكئة على ممسحة الكاوتشوك خارج الحمام تبتسم بسخرية وهي تنظر إليه يلمع كأنياب ذئب في العتمة . .

تنظر سلوى نظرة جانبية يشوبها ما يشبه الشك أو الدهاء الى طاولات السجائر وظهر التلفزيون وزجاج النوافذ . . تضع يدها على خصرها ثم تتحسس بطنها المبلول. لحظة تهزّ رأسها . . وتسرع الى الجلد الاصطناعي .

تقف سلوى الآن على الشرفة . . تنفض الغسيل فيتطاير رذاذ خفيف. تنظر الى الأسفل. بعض الجارات قد سبقنها أم أنه غسيل البارحة؟ تلتقط مشبك الغسيل من فمها ثم تنظر مرةً أخرى الى الشارع . هذا صوت ابنها. إنه يتعارك من جديد مع ابن الثالث. الثالث سكان أصليون ويتمادون أحياناً في ازدراء القادمين الجدد. الكبار يبتسمون كثيراً . . لكن الصغار . .

ابن الثالث يشحط الآن ابن سلوى من شعره وابنها لا يصرخ . . تصلّي سلوى على النبي . قلبها يضرب بعنف والهواء يدخل ما بين ثدييها حتى أسفل البطن فيثلج عرقها . . تتلفت

سلوى ناحيتي الشارع فلا ترى أم الصبي. . تنتظر قليلاً. . ابنها يصرخ الآن. ترفع سلوى يدها وتصرخ:

ـ إيدك عنو يا حبيبي حرام. . إيدك عنّو انت شاب.

ـ إيدك عنو يا ابن الشر. . أحسن ما إنزل إفزرك. يلتفت الصبي. يرى سلوى. يرفع يده. . ويبتسم.

إنه الآن يبتسم كأمه.

هذا كلسونه الصغير الأزرق الجديد. . تشبكه بالحبل وهي تبتسم. .

لعنة الله على. .

ترفع سلوى شعرها وتشبكه ثانية. . تعاود رفع كمّيها الى ما فوق الكوع. ترفع كيس البصل وتفكّر. تفتح كيس الرز وتفكّر. . تنظف الدجاجة مرة أخيرة تحت الحنفية وتفكّر. . ثم تستدير بحركة مفاجئة. . تنظركلصّ الى الأرض والزوايا ثم تبتسم. . نظيف تماماً، وكل شيء في مكانه. .

منذ خرجت سلوى من بيتها الأول وهي مهووسة بالنظافة تركض منقضّة بالمسحة الصغيرة على أي شيء لا يلتمع. . وهي فعلاً لا تحب ما يقوله الآخرون عنهم. . عندما تعود صاحبة البيت سوف تذهل حقاً. . ستجد أن من كان في البيت أكثر نظافة منها. . هي لا تعرفها ولكنها حتماً ستحدث جاراتها بذلك. . سوف يعرف الجميع.

أكثر من ذلك. . فمنذ زمن غير قليل وسلوى تحلم بكوابيس لا ترى فيها الا أوساخاً، أوساخاً من أنواع كثيرة جداً وفظيعة جداً

تترك فيها بعد أن تستفيق ذعراً يمسكهـا من أسفل بـطنها ويشـد الى فوق.

ابتسمت سلوى حين احست رطوبـة الليلة الفائتـة تنسرب بتؤدة وتلتصق لزجةً بين فخذيها، ونظرت بارتياح الى طنجـرة الماء تغـلي. خففت من قـوة الغـاز تحت الـطنجـرة الأولى ورمت بعـود القـرفـة والبصلة الى مـاء الدجـاجة الغـالي فتصاعـد أريـج زكي.. سكبت قليلاً من الماء الغالي في جاط الرزّ المنقّى.

نظرت مرةً أخـيرة الى الشارع. رفعت المنشفـة عن الحبل وألقت بها على كتفها.. دخلت المطبخ، رفعت الغطاء، قلبت الدجاجة ثم أعادت الغطاء وحاذرت أن تُبقي فتحةً للبخار. انحنت ونظرت الى الغاز. وقفت. استدارت. وضعت يدها على المنشفة..

بوم!

فتحتْ سلوى عينيها ونظرت بين الدخان فرأت دجاجة مسلوقـة جاثمة على حجر مكسور وخلفها جزء من سماء زرقاء وهادئة..

فتحت سلوى عينيها مجدداً ونظرت:

عجباً. كيف أنها لم تلحظ بيت العنكبوت هذا من قبل؟!.

تمرين اثنين

أو سلوى في السرفيس

مدّت سلوى يدها بالليرتين الى السائق ثم استوت في جلستها ونظرت الى الراكب الآخر نظرة سريعة حذرة ثم شدّت الكيس الى صدرها. أنزلت قليلاً زجاج السيارة وأخذت تنظر عبر الزجاج. إنه الربيع تقريباً. بالطبع أجمل الفصول لكن.. في الربيع، دائماً، يداهم سلوى احساس عميق بما يشبه الحزن أو الإحباط.. تحس وهناً، يضيق نفسها ويعاود عينيها الرمد الربيعي.

إنه شارع طويل، وهو دائماً شديد التوتر بين ازدحام السير الخانق والخواء التام. السيارة متوقفة تقريباً وسلوى ترقب البنايات.. تنتقي شقفاً تحاول الدخول إليها وتخمين وجوه ساكنيها وشكل أسرتهم.

باب السيارة يفتح فجأة ويدخل راكب جديد. تتململ سلوى، تشد كيسها الى صدرها. تلتصق بالباب وتلوي ساقيها بقوة باتجاهه. عجيب.. لماذا اختار هذا الرجل المقعد الخلفي ذي الراكبين مع أن الأمامي فارغ.. دم خفيف دافئ يصعد الى وجه سلوى حين التصق فخذ الراكب الأول بفخذها. نظرت الى وجهه نظرة سريعة ولم تتبينّ وجهه الغائب.. خبطت معدة سلوى خبطة عنيفة وصعدت الى عينيها صورة بائع البطيخ.

توقفت سلوى مرة أمام عربة الطبيخ. قالت «أريد بطيخة حمراء وسكريّة». قال البائع «عالسكين». وأغمد سكينه المستقيم في البطيخة. اختلج جسد سلوى بعنف ورأت غيمة صفراء ثم.. يدان قويتان تحت إبطيها والبائع شاحب. في البيت فكّرت سلوى.. ليست هواجس. لا بد أنها رؤيا. قالت والعرق يتصبب من رأسها المثلج والجيران مندهشون.. إن لكل رجل لا تعرفه روحين. روح البطيخة وروح السكين. بالطبع، بائع البطيخ يبيع بطيخا، لكنه، ربما في الليل، يخرج الى الحرب ويذبح أناساً لا يعرفهم: وخزة في بطنها. هذا ليس جنوناً ولا ما يشبهه وإلا، من هم هؤلاء الذين يفعلون كل هذا؟! هل يُعقل أن يفعلوا هذا وهم يبيعون البطيخ؟! ثم خرج الجيران وعلى وجوههم أسف عميق.

فخذه الحارة تشبه العلقة الآن بعد أن نفذت من البنطلون الرمادي المتسخ قليلاً وسلوى تحس الآن دواراً خفيفاً مشرباً برائحة البنزين المحروق وزمامير السيارات التي أخذت تخفت وتتباعد تعباً ويأساً. خدر كخدر السم يصعد من فخذ سلوى الى عينيها. يدخل صوت السائق كصدى بعيد يضرب أذنها خفيفاً ثم لا يلبث أن يعنف بالسباب والشتائم. يهتز زجاج النافذة ترى سلوى صبيّاً يهجم على وجهها بيد مقطوعة في طرفها غمّازة أو ما يشابهها تشيح سلوى بوجهها الى الجهة الأخرى فترى امرأة شديدة الهزال وقبل أن تبتعد ينبقر الكيس الذي تحمله من أسفله وتندلق منه حبات تفاح شديدة الصغر تكرج في كل اتجاه، تلتفت المرأة يمنة ويسرة وتبدو وكأنها تبتسم، ثم تنقض بلا حرج على التفاحات المبعثرة تلمها بالعجل وتضعها في كيس منتفخ آخر.. تبتسم من جديد وتنظر بحسرة واضحة نظرة أخيرة الى تفاحات بعيدة تدحرجت بين

السيارات قبل أن تبتعد بخطوات صغيرة سريعة.

باب السيارة ينفتح فجأة وتنسلخ الفخذ ببراثنها عن فخذ سلوى فيغمرها ارتياح من غطس لتوه في مياه دافئة.. ينزل صاحب الفخذ ويصفق الباب بغضب. يمشي عكس اتجاه السيارة. تستدير سلوى وتنظر إليه من الزجاج الخلفي. إنه صغير السن وضئيل ويشبه أحد أقربائها.

تسوي سلوى من جلستها وتضع الكيس في أرض السيارة. المقعد خال الآن ولن يشغله أحد في هذا الازدحام الخانق. تلصق سلوى ساقها بالكيس فتسري برودة النايلون انتعاشاً في الساق.. تنظر براحة الى فخذها في نقاهته، تتأمل استقامته الخالية من الانتفاخ الجميل. تسوي وضع تنورتها وتنفضها فوق الفخذ.

ها قد عاد جسدها الى اللعب. كثيراً ما صارت سلوى تمعن النظر إلى أحد أطرافها وهي موقنة أنه ليس لها، وأنها، لو أدخل أحد ما فيه إبرة طويلة فهي لن تحس ألماً.. تتأمله في ثباته الغريب كما يتأمل الواحد حشرة غريبة توشك أن تطير.

في التلفزيون عمل الساحر ما يشبه هذا.. أدخل امرأة جميلة الى صندوق يطل منه رأسها ويداها ورجلاها. كل مربوط بحبل الى يد الساحر.. شرم برم ويبدأ الساحر بسحب الرأس الى فوق ثم اليدين في الاتجاهين المتعاكسين.. ثم الرجلين حتى تبدو المرأة التي في داخل الصندوق قد تحولت الى خمس قطع أو أكثر.. ثم شرم برم يستجمعها ثانية قبل أن يفتح الصندوق.. والناس يصفقون.. وعادة تستجمع سلوى نفسها وتعود الى تبنّي ذلك الطرف الجاحد.. وتسوّي الأمور.

يقفز رجل له سحنة الضفدع الى المقعد الأمامي . . يبدو لسلوى أن أكثر الناس تشبه الحيوانات، أناس يشبهون الطيور حتى يكاد ينفذ الريش من تحت ثيابهم . . وأناس يشبهون الزواحف وهم قلما ينظرون الى أعلى، وأناس يشبهون الكلاب . . الرجل الضفدع يولع سيجارة يعزم على السائق فيعتذر . . لا يعزم عليها . . رجل مهذب يعرف أن السيدات لا يدخنّ في السرفيس.

السيدات؟! سيدات ماذا وهي تشبه الحمار بعينيها الكبيرتين الحرنتين ووجهها الطويل وفمها ذي الشفتين المصوصتين . . أمها، رحمها الله، كانت تقول إن لها سحنة البوم، مما يبعد الخطّاب . . لكن سلوى تذكر جيداً أن أمها، رحمها الله، كانت أكثر بشا . . أو لنقل أقل جمالاً منها، وقد تزوجت سيّد الرجال . . الآن يبول سيد الرجال في فراشه فتوسعه امرأة أخيها باللعنات . .

ولكنها كانت لترضى بسيد رجال كهذا . . . حمارة! . .

حمارة ولا تعرف ما هي الأنوثة كما تقول المجلة، الأنوثة لا علاقة لها بالجمال . . لكن الأنوثة، حاولت كثيراً، شيء يشبه أن تكون المرأة فاسدة . . أن تنظر مباشرة في عيني الرجل وتتلمظ بشفتيها وتطعج خصرها وترف برموشها وهي تتنهّد . . تباً للأنوثة . . إنها أمر في غاية الصعوبة.

زمور طويل . . حمارة!

لا . . تشبه الحمارة بالشكل ولكن صار لها سلوك الجرذان أو أي من تلك القوارض التي تعيش في العتمة. تلك الليلة، على بيت الدرج كلما انفجرت واحدة كانت أظافرها تطول أمام عينيها وتحفر في إسمنت، الزاوية . . لعلها تفتح حجراً تهرب منه الى سرداب ما

تحت المدينة. . تنبش تراباً أكثر عمقاً، رطوبةً، عتمة. .

جاع الأولاد. التفت الجميع إليها. . هيّا كأنهم يقولون على ماذا تخافين. لا أحد يتيتم من بعدك. . فاتتك دورة الحياة على الأقل ساهمي في دورة الأكل. . هذا ما تفعلينه أصلاً. . حسناً. . حملت تنورتها بأسنانها صعدت على أربع كالجرذ تماماً. . وكأنها ما صعدت قبلاً على رجلين اثنين. . برشاقة عجيبة. . كان البيت يتوهج بالتماع القذائف. . صارت تصدر أصواتاً حادة متسارعة. حملت كيس الخبز بأسنانها، تلفتت في كل الاتجاهات. أغرتها رائحة الجبنة. وضعت القالب الأبيض في كيس الخبز. أعادته إلى أسنانها وعادت تدب على أربع. تنزل الدرج بالخفة والدراية نفسها. بأقل ما مدته خمس قذائف كانت تضع الكيس بين أفواههم وتقعى لاهثة على قفاها.

توت توت توت

تتلكأ السيارات ما يكفي لكنها بالنهاية تفسح لسيارة الإسعاف بعد أن يطلق الشباب المتعافون نيران أسلحتهم في الهواء. .

سائق ذكي استغل الفرصة ليهرب من الازدحام. . تبع سيارة الإسعاف عن قرب. . لكنه سرعان ما اصطدم بها من الخلف لشدة هياجه. . توقفت سيارة الاسعاف. نزل أحد الشباب وضرب مقدمة السيارة بكعب سلاحه فابتسم سائقها ووضع يده على رأسه. . المشاهدون يبتسمون وكأنهم يطلبون من الشاب المسلح أن يغض النظر فالضربة خفيفة. . لكنهم لا يخفون شماتتهم بالشاب.

قالت سلوى. . هذه ليست سيارة اسعاف. . إنها سيارة اسعاف لكنها لا تتجه إلى أي مكان. . وهي كذلك لن تصل إلى أي

مكان. . ذلك أن الحرب ليست حرباً وإذاً فسيارة الاسعاف ليست سيارة للإسعاف وسلوى موقنة أن لا أحد ينتظرها. . فقط هي شيء يسير على أربع ويطلق أصواتاً مختلفة تحت القصف تماماً كما حدث ويحدث لسلوى. . الا أن سيارة الاسعاف هذه أكثر شبهاً بالكلاب منها بالقوارض. سيارة الاسعاف تشبه كلب الصيد. . حين تصل الى صاحبها، أو الى المستشفى، ستلقي ما بفمها وهي تلهث واللعاب يسيل من لسانها الممدود اللاهث، ستفعل ذلك بفخر وسعادة وسيأتي من يربت على رقبتها لأنها لم تأتِ هي نفسها صيداً بفم كلب آخر. .

كهل يبيع عقود زهر الليمون معلقة على خشبه تقول سلوى انها تشبه الديدان البيضاء. يقترب الكهل من السّيارة وهو يتمتم بكلام غامض يشتمه رجل المقعد الأمامي فيبتعد وهو يتابع كلامه الغامض.

تمد سلوى يدها وتفتح باب السيارة. يخطر لها أن لا تنعطف الى الزاروب حيث بيت أختها. أن تظل سائرة بخطى ثابتة خابطة في الأرض. . أن لا تقف عند نهاية الحاجز الرملي. . أن تقطف عن قمته بندورة أو ما شابه وأن تتابع الى ما ورائه. . الى نهاية الشارع، نهاية العالم، نهاية الابد. .

تتوقف قليلاً. . يا للجنون. . يا للفضيحة. ترد سلوى شعرها بيدها الى الوراء. تضع الكيس على الأرض. تمسح العرق عن يدها تعاود حمل الكيس. تهز برأسها راثية لنفسها. لا بد أن الصغير سيستقبلها عند الباب بمخطته الدائمة الاخضرار. . تنعطف سلوى وترفع رأسها الى شرفة بيت اختها. لا أحد. تسرع سلوى

في مشيتها لتساعـد أختها في اعـداد الطعـام قبل أن يـرجع زوجهـا السيء الطباع.

بوم!

فتحت سلوى عينيها بصعوبة ورأت غيمة كبيرة صفراء. نـظرت حـولها. إنها الـرؤيا.. هـا هي الآن كفتـاة السـاحـر، لكن، أقـل جمالاً، وحتى الله لن يستطيع أن يستجمع أطرافها من جديد.

تمرين ثلاثة

أو سلوى تلد

بثقل كبير رفعت سلوى رأسها عن الوسادة وأنزلت رجليها عن السرير. نظرت من النافذة.. لقد فرجها الله وها الفجر يرسل أولى إشاراته الزرقاء الداكنة الى داخل الغرفة..

أزاحت سلوى الستار قليلاً ونظرت في ساعة يدها التي تركت آثار سوارها فوق المعصم بقليل: إنها حوالى الخامسة.. إنه الوقت الذي عادة ما يلجأون فيه الى السلام.. ولا أحد يعرف لماذا.. يتعبون؟ أم ينعسون؟ أم تراه سلام الفجر الذي يشلّ الأذية؟!

نظرت سلوى عبر الزجاج المغبش فوجدت شرفتها الصغيرة تسبح بمياه المطر الزلال، وغسيلها المنشور تحت سقف الشرفة تقطر أطرافه المتعبة من سوط الأمطار، فوق البالوعة المسدودة..

يا لنعمة الدفء، فكرت سلوى، ثم نظرت الى وجه زوجها.. غارق في نومه وما زال.. فمه الشهي مفتوح قليلاً وتنفسه المنتظم المسموع في هذا السكون الشامل لا ينم عن راحة النفس النائمة المنصرفة عن عالم اليقظة.. منذ بداية الأحداث لم ينفصل نومهما فعلاً عن يقظة قلقة مليئة بما يشبه علب التنك الصغيرة الفارغة.. لذا فهي لن توقظه الآن.

تخرج سلوى الى البهو الصغير. تنظر حولها.. كل شيء في

مكانه تماماً. . تعيد سلوى طي المنشورة التي يوزعها شباب الحي وتجلس مباعدةً ما بين ركبتيها وهي تشيح برأسها عن الصور التي في المنشورة والتي تبدو الشيء الوحيد الذي يتحفز لحركة ما في هذا الفضاء الصغير. . تخلع قدماها المتورمتان الشحاطة بكسل وترفعهما سلوى الى الطاولة الصغيرة. . لقد دخل الفجر ما يكفي لترى بوضوح عروقهما الكحلية المنتفخة التي تبدو حبالاً رفيعة كثيرة ومتشابكة ملقاة على شرشف أصفر باهت.

تهزّ سلوى رأسها أسفاً. . أين الساقان المرمريتان اللتان كانتا تديران الرؤوس؟!. . بعد الوضع ستعود الأمور الى ما كانت عليه. . لا بد. .

تنظر سلوى الى كرة بطنها الكبيرة وتبتسم وهي تراها تتحرك وتغيّر تباعاً وجزافاً من شكلها الكروي. . تضع يدها حيث تخمّن أنها قدمه النزقة. تحس في أسفل البطن ثقلاً دائرياً ضاغطاً بينما تعود البطن الى التقلّص بقسوة تجعل الجلد يبدو مشدوداً الى داخله. .

تتنفس سلوى عميقاً. . ما زالت الطلقة بعيدة عن الطلقة، لذا لن توقظ زوجها الآن فهي ليست خائفة مطلقاً. . صحيح أنها ولادتها الأولى ولكنها ليست تلك المرأة الجاهلة. . فطوال ثلاث سنوات طويلة لم تُصغِ كما كانت تصغي حين يتعلّق الأمر بالوضع وبحكاياته المتفاوتة المثيرة. . فلم يكن للنساء صديقاتها وقريباتها وجاراتها من متعة أكبر من تلك التي تستحوذ عليهن وهن يروين تفاصيل ولاداتهن المتتالية، ما سبقها وما تلاها، ويصطنعن المعاناة وألم الذكرى والاشمئزاز من تلك الخدعة التي يقال لها حلاوة

الأمومة ومتعتها الكبيرة، فيلعنّ الأولاد وآباءهم ثم يستغفرن ويطلبن الى الله أن يحفظهم في تلك الأيام العصيبة. . لا بد أنهن كن يراعين وضعها إذ كنّ يعتبرنها عاقراً.

يضرب قلب سلوى خفيفاً وتشعر بحرارة تملأ جسدها وهي ترتشف القرفة بالزنجبيل. . تسمع أصوات عصافير قليلة وبعيدة. . لا بد أن الربيع على الأبواب قالت سلوى وهي تنظر الى الحقيبة الصغيرة المعدّة قرب الباب. .

* * * *

حتى بوابة المستشفى الرئيسة مرّ الشارع كحلم سريع ومزعج. . ذلك أن سلوى لم تكن، عبر الزجاج الذي تنزلق عليه حبات المطر تاركة خطوطاً متعرجة، ترى تماماً إلى الخارج. . كان الشارع بأناسه وأشيائه يبدو غير حقيقي تماماً. . ولعل مزيج الرهبة والتوقع، الفرح والألم كان يرد سلوى الى عالم بطنها الذي كانت إعلاناته عن نفسه تتسارع وتزداد حدّة.

لم تأبه سلوى لحبّات المطر الباردة التي كانت تنزلق من جلدة رأسها إلى جبينها وصدغيها إذ أن حرارة جسدها الداخلية كانت آخذة في الارتفاع، وقد علت وجنتيها حمرة زهرية. . لذا لم تأخذ المحرمة الورقية من يد زوجها بل مسحت رأسها ووجهها بيدها وهي تقول لزوجها: الطابق السابع. .

طلقة أخرى تعبرها كموجة خفيفة لكن متماسكة فتتوقف مستندة بيدها الى الحائط البارد وهي تشعر بفخر حقيقي ازاء النظرات القليلة المتعاطفة التي مرت مسرعة قربها. . لا تستند إلى ذراع زوجها المقدَّمة لها لأنها تعرف أن هذا الأمر العظيم إنما ستقوم به

لوحدها. . لوحدها تماماً. . وهي الآن في أتم الاستعداد. .

نقلت سلوى قدمها بصعوبة باتجاه المصعد إذ أن الثقل الذي يضغط بدائرته الى أسفل بطنها أخذ يزداد ويشتد باتجاه الأسفل وكأن جاذبية الأرض قد انسحبت من مساحة شاسعة لتتركز على هذه الدائرة الصغيرة، تطالب بشفط جسم يعيد إليها، بعد أن تحصل عليه، توازنها السابق فتعود الى وجودها الموزّع الخفي.

زمامير سيارة الإسعاف. . أجساد ملفوفة بشراشف مبقّعة بالأحمر تهبط من بابها الخلفي. . أجساد تتدافع وتدفع معها سلوى الى داخل المصعد. . بابه السميك ينغلق في حركتين متتاليتين. . عين سلوى على زر «7» الذي أضاء بالأحمر.

* * * *

ضرب قلب سلوى كمضخة عملاقة حين أغلقوا باب قسم التوليد دون زوجها. . وأحست بأنها تنقطع فجأةً انقطاعاً كاملاً عن العالم الخارجي. كان شيء ما يشدها من طرف ثوبها الأبيض المفتوح على طوله من الخلف، شيء كأنّه يدعوها للإقلاع والعودة، وهي تشدّ طرفي الفتحة بيدها لتغطي قفاها المكشوف على عريه، محاولةً بيأس استرجاع مساحة الثوب التي كان يشغلها بطنها المتكوّر. طلقة موجعة جعلتها تنظر باهتمام وإقدام الى الداخل فأطاعت مسرعةً أوامر ممرضة تشبه قليلي الشعر من الرجال. أخذت كباية البلاستيك ودخلت حماماً صغيراً، صبنت يديها من آثار البول ونظرت الكباية. أعطتها للممرضة بحياء وقالت لها أن الطلقات تتسارع فهل سيأتي طبيب. أخذت الممرضة الكباية ولم يبدُ عليها أنها سمعت السؤال. .

حاولت سلوى أن تسدّ أذنيها عن تلك الأصوات الجحيمية عن ذلك العويل الواحد المتعدد الأصوات، الذي يطلع بالشكوى الملحة وينخفض بالاستغاثة المتكررة المتشابهة.. كان ذلك فظيعاً ومثيراً للهلع الا أن وجوه الممرضات والأطباء الشبان كانت تبدو منتمية الى عالم آخر. كانوا كأنهم لا يسمعون.. لا يسمعون شيئاً مع أن سلوى لم تر قطناً في آذانهم.. كانوا يتبادلون التحية والنكات والتعليقات السياسية الخفيفة.. كانت شذرات أحاديثهم الرابط الوحيد الذي كان يعيد إلى رأس سلوى صورة ولو مشوشة جداً عن عالم خارجي ما زال ينتظرها.. لكن في الحقيقة لم تكن سلوى مطمئنة تماماً الى الطريقة التي كان يستعملها هؤلاء إذا ما اضطروا الى الرد على إحداهن: كانوا كأنهم يتوجهون الى طفلة أو إلى امرأة متخلفة عقلياً.. أو...

حسناً...

أحست سلوى بأن ما كانت تتصور بأنها ستفخر بالقيام به ليس مدعاة للفخر بالقدر الذي كانت تعتقد.. فلا بد أن هذه الممرضة التي توضّبها الآن بآلة حلاقة حادة وبضربات سريعة قاسية لامبالية تعتبر أن الوضع أمراً أشد قرفاً وتفاهة من تقشير البطاطا وهو أمر شديد الشيوع إذ أن كل كائنات هذا العالم التعس تتوالد دون أن تحدث هذا القدر من الضجيج. لذا أطبقت سلوى شفتيها بقوة وهي تحس أنبوب الحقنة الشرجية يندفع بمياهه الدافئة الممزوجة بما يشبه الصابون إلى أمعائها.

رأس سلوى يتحول الآن الى طنجرة فارغة على نار قوية، فقد دخل الأطباء الشبّان.. أربعة أو خمسة.. هل ما زالوا طلاباً؟

ابتسمت للذي يبـدو الأشطر بينهم وهـو يرطن بـالانكليـزيـة إلا أنه، ودون أن ينظر الى وجهها، وهو يتابع حديثه الهـام. . باعـد ما بينْ ساقيها وهي تحاول أن تشدّ بارتباك كبير ثوبها الى تحت، وجعـل يتكلم مـع الآخرين فينـظر اليهم تـارة والى مـا بـين فخـذيهـا تـارة أخرى. . وهم يفعلون مثله. . إن رأسها الآن هو عن حق كطنجرة فارغة على نار قوية. .

وخطر لسلوى لحظتها أن تعتذر.

* * * *

ميـاه دافئة، لا. . ميـاه ساخنـة راعشـة جعلت تتـدفق مـا بـين فخـذيها وتنسحب الى تحتهـا. . خجلت سلوى كثيراً أمـام نـظرات الممرضة المتبرّمة الضجرة. . وحاولت قدر مستطاعها أن ترفع نفسها دون مساعدة حتى يتسنى للممرضة أن تسحب الشرشف المتسـخ. . مـرّ طبيب. . نظر من بعيـد الى غرفـة الأسرة العشر. . أشـار أحـد التـلامذة الى سلوى. . لكن سلوى لم تستـطع أن تبتسم لأن المصل المعلق الى يدها كان يدفع الى بطنهـا وخاصرتيهـا وظهرهـا بشحنات كهربائية من الكبريت الحارق فتشعر أن قلبهـا يتشظى في مكـانه ثم يعود فيتجمّع متعلقاً بخيط من الحرير الى قفص الضلوع. .

هـزّ الطبيب رأسـه وقـال شيئـاً. . اقـترب الـطبيب الشـاب (أو التلميـذ؟) وزاد من الفتحة التي ينسرب منهـا سـائـل المصـل. . ثم التقط معصم سلوى. . حـاولت أن تمسـك يـده لكنهـا أحـست بالارتباك. . ترك يدها. . ثم. . دس يده بـين فخذيها فإذا بحجـرٍ ناري يشع لهباً في أسفل بطنها.

* * * *

لم يعد لسلوى أي احساس بمفهوم الوقت. . كم تراها الساعة الآن. . الحادية عشرة. . الواحدة، الخامسة بعد الظهر. . أخذ ضوء النهار ينكسر في فضاء الغرفة وسلوى تسمع أصوات انفجارات بعيدة، لكنها، وكأنها تسمعها للمرة الأولى، آتية من كون تجهله تمام الجهل. . لذلك لم تعرف أين تدرجها في خانات المعاني المتلاشية المبتعدة. . لعل الصحيح أن سلوى فقدت تماماً الحاجة أو المبرر لاستعمال رأسها أو أي من حواسها الدّالة. . إن حنجرتها تصدر الآن، بعد كل مدة من خمس زفرات، أنيناً خافتاً صار يصعب على سلوى أن تكتمه. . الطبيب الشاب لا يبدو مسروراً من سلوى فلا بد من أن حالتها تزداد تعقيداً. . سألته. قال: كل شيء طبيعي فقط الطفل كبير. كان عليك الا تكثري من الأكل إبان حملك. . ثم هزّ رأسه أسفاً. . أو تبرماً. .

* * * *

شدّي. . ادفعي. . بعد. . بعد. . كأنك مصابة بإمساك شديد وتريدين دفع «الكاكا» الى الخارج. . يكفي. . تنفّسي.

ادفعي. . ادفعي. . هذا لا يكفي. . ما قصتك يا ست؟ هل تتدلّلين علينا. . ادفعي. . بعد. . بعد. . حسناً توقفي. . لا تدفعي. . تنفّسي.

سلوى تشك عميقاً بمقدرة حواسها على تلقي الأمر بالشكل المطلوب. عليها الآن أن تنفذ جيداً فلم يعد هناك مجال للاعتذار.

سلوى تصرخ. . الأصح أنها الآن تخور كبقرة هائلة البطن، مربوطة الى الطاولة بسوار من الجلد في كل طرف من أطرافها. . لو يعتقون يديها ويعطونها شيئاً تمسك به وتشدّ. .

ادفعي.. ادفعي.. يا ست.. ما اسمها! يللاّ يا شاطرة إننا نرى الرأس..

وسلوى لا ترى مما حولها سوى بقع متماوجة بالأزرق والأبيض. وسلوى تحس عينيها طابتين هائلتين تندفعان بعيداً ثم ترتدان الى محجريها.. وسلوى تحسّ بطنها سكيناً هائلاً بآلاف الشفرات يدور بسرعة هائلة داخل نفسه.

سلوى تصرخ الآن بصوت عظيم تسترجع لتوها نقاوته.. بصوت يبدأ من أسفل رأسها ويخرج من أسفل البطن بدفعة تترك لقوتها فراغاً هائلاً حتى في منابت الشعر..

سلوى ترى جسداً صغيراً يلمع في سائل وردي يتدلّى من يدٍ كبيرة بيضاء..

يبتعد الآن جسد سلوى عنها كالشهب السريع.. ويختفي.. ها هي تذرف دموعاً ساخنة هادئة تخرج غزيرةً من عينيها المغمضتين لتستقر عند صدغيها الباردين..

وها نفس سلوى الآن حزينة حتى الموت.

* * * *

هل تكون سلوى حزينة لأنها ولدت بنتاً؟

إنه موعد الرضاعة.. تتقدم الصناديق الزجاجية الصغيرة تدفعها بخفةٍ أيدي الممرضات المرحات.. تجتاح عينا سلوى الصناديق سريعاً وقلبها ينتفض بعنف، ومساماتها تزيد من افرازاتها الغامضة..

صندوق واحد يأخذ طريقه الى سرير سلوى. تستند سلوى

بكفيها على السرير وترفع كتفيها ورأسها. . ترى أنفاً صغيراً بفتحتين صغيرتين جداً. . ثم ترى جبيناً كثير الوبر الأسود والصندوق يقترب. . ترفع الممرضة اللفافة الصغيرة باتجاه حضن سلوى. . تمد سلوى يديها لكنهما لا تصلان فتحاول مجدداً أن تسوّي جلستها.

بوم. .

يتعالى صراخ المولّدات والممرضات. . أصوات من خارج: «وصل القصف المستشفى. . الجميع الى الممشى». .

بوم. .

ترى سلوى المطر يتساقط غزيراً في فجوة أمامها، فتقف جامدة تنظر ولا تفهم. .

صوت حاد يشبه مزماراً صغيراً بنغمة متقطعة وراءها تستدير سلوى. . تخطف ابنتها بيد قوية ماهرة. . تضعها تحت إبطها تستند باليد الأخرى الى الحائط وتتجه بخطى رشيقة الى الممشى.

II ـ زائرات:

نجوى

ندى

سامية

سهى

سلام

سميرة

نجحت نجوى في المحافظة على ابتسامتها الرقيقة بعد أن أغلقت وراءها باب المتجر وأخذت الشارع، وزادت من رشاقة مشيتها وهي تطوّح خفيفاً بكيس النايلون.. كأنها بذلك تحاول اقناع نفسها بحسن اختيارها..

كلما اشترت نجوى شيئاً جديداً أخذها ما يشبه الحزن الصغير الذي لا تعرف سبباً له، ينقضي عادة بعد أن تألف عيناها الغرض في الحيّز الذي يتخذه بين أشيائها..

تنزل نجوى في الشارع كمن ينزل في بئر.. وكأن الشارع الى تحت إذ ليس الشارع في مدينة كهذه شريطاً للانتقال والنسيان واللهو.. ليس معبراً من إلى، يلتقطه الجسد الواحد ليتوازى ويتوازن في حركته الأفقية بين الأكتاف الكثيرة الغائبة المنشغلة التي تداري وتحفظ حريته ومجهوليته.. لا ليس هذا.. الشارع في مدينتنا لا يشبه الشوارع في المدن الأخرى، ولا في الآداب العالمية.. الشارع عندنا مكان بذاته ذو حدود مقفلة، ملعب فسيح، فخ للعيون الكاشفة واللقاءات السريعة المحتقنة، شبه الجنسية.

الكل ينظر الكل في شارعنا، يعرفه، يفتش عنه، يضعه في

جاروره: هذا شبيه، هذا متواطىء، هذا مفخخ سيارة، هذا خائف، هذا خائن، هذا رجل وصل لتوه المدينة؛ هذه خبرية موت طازجة آتية من شارع آخر..

هذه امرأة ستصعد فجأة الى السماء ويبان ما تحت فستانها.. هذا كلب لم يصبه داء الكلب، هذا رجل يبحث عن زمرة لتخليع الليل.. هذا بدين سيخلع سمنته فجأة في أرض الشارع ويسير.. هذا نبي يحمل نبوّته في كيس برتقال يعود به الى بيته..

والنظرات تعبر الرؤوس كسهم المهرج الكرتوني الذي يخرج من الجهة المقابلة وناس الشارع يحافظون كنجوى على ابتسامة معقولة، أو مثلها يخترعون ترساً يسيرون وراءه، دوراً هادئاً يعبرون بداخله الشارع كجنود حصان طروادة.. ونجوى اليوم تعبر داخل بالون مطاطي زاهي اللون: صورة فتاة مزيل الرائحة التي تتنطط على فرشة هواء في الدعاية: «ريحة ليمارا.. بتنعش عاطول، وحدا ليمارا بتنعش عاطول.. تام تتام تام تام»..

ترى نجوى طاولات المقهى، من بعيد، كسفن ورقية بيضاء تتهادى على صفحة الطشت. تسرع قليلاً في مشيتها كي تضفي عليها شيئاً من الجديّة.. كذلك تضبط ابتسامتها.. ولكنها تحس بتعب مفاجىء يجعل الطاولة التي صممت عليها وهي تقترب تشبه سارية مكسورة خارجة من الماء.

كانت نجوى كلما اقتربت كبرت المسافة بينها وبين الطاولة كأن النظرات الآتية من الطاولات الأخرى الكثيرة والتي أخذت تلتقي على المساحة الأمامية لجسد نجوى تجعلها تنتفخ الى الخلف كالشراع الذي تعاكسه الريح. لكنها لم تترك لهذا الضغط المتعاظم أن يرجعها

الى الوراء بل بقيت رغم توتر عصب الساقين ورغم تعثر خفيف في خطواتها التي كانت لحظة خلت تكاد لا تلامس الاسفلت، بقيت تتابع تقدمها وعيناها مركزتان بتصميم كبير على الطاولة حتى نجحت في الوصول إليها و. . جلست.

ألقت نجوى بمحفظتها وبكيس النايلون الى الكرسي الآخر وأخذت تمد أصابع يدها حيث تركت مسكة الكيس حزاً أحمر يوازيه حزان أبيضان خفيفان. . قالت. . لن أنظر الآن حولي. . فيما بعد. فتحت الكيس وعاودت النظر الى الكنزة الصوفية الزرقاء الجديدة واستحسنت اختيارها لهذا اللون الجميل. . نظرت مساحة الطاولة البيضاء وتحسست بعض ذرات الغبار بأصابعها الباردة.

نظرت ساعتها. . خيّ. . خمس دقائق وتأتي نوال.

يا للأريج الدافىء. . القهوة الطازجة. . العطور. السبيرتو الأزرق. ونجوى الآن محصنة بالطاولة كالآخرين ولا بد أنهم قد غفلوا عنها الآن. نظرة سريعة، لا ترى شيئاً، تعود الى يديها. تقترب بكرسيها أكثر من الطاولة فلا تبقى وحيدة. .

الطاولات. . الطاولات. . كيف لا ننتبه الى أهمية هذه الأشياء المباركة التي نقضي وراءها نصف حياتنا. .

طاولة للرغيف وطاولة للدفتر الصغير والكتاب، طاولة لإطار صورة أمي وطاولة للنبتة المخفوقة بالضوء. . طاولة للكؤوس والعتابات ولجاط فاكهة الصداقة الفجّة. . طاولة كالصينية لرذاذ الكلام المتساقط ولربط خيطان بالوناته الفاقعة. .

إنها ستار نصفنا السفلي الملعون، إنها مصفاة لأحقادنا، ومنتصف

السلك لنعقد أسلاك نظراتنا الهائمة، لنلقي بأحقادنا كما بمفاتيحنا ونزعل.

الطاولة، بحرنا الصغير الذي نتابع على صفحته ريشة سهونا الطائرة الى الريح.. الى الزيح..

الطاولة، الثالث، الشيطان بيننا، يغرينا كي نبلف، كي نفلش طاولاتنا عليه وكي نعقم مباضعنا كما يجب..

إنها الملعب كي نتلفت كالعصافير ونضحك كالقردة ونتمايل كالأشجار ونتكتك بفقاعاتنا الصغيرة كاللبن الفاسد..

إنها الفراغ بيننا، كعبدٍ، كيْ يبعدنا بالقدر الكافي.. فقط كي نرى، فقط كي لا نمتزج برغوة الجسد، وكي نفرش شرشف النوايا، وكي يسبقني اليك خشب الرغبة، وكي ننتظر، وكي تداهم كرسياً قبالتي، وكي تحضر خارجاً من تحت، وكي تطفو، وكي...

لم تحضر نوال..

حين تحضر نوال ستراها نجوى من بعيد.. إنها دائماً تقفز قفزاً.. ترفع نظارتيها وتبتسم حتى قبل أن ترى نجوى، تهز رأسها الصغير هزتين خفيفتين وتجدها.. نوال تعرف أنها ستجد نجوى بانتظارها فلا يبدو عليها قلق من يبحث عن شخص أو شيء ما.. بل كأن الأمر عندها سيّان.. تفكر نجوى.. كأن الأمر عندها سيّان..

عندما تأتي نوال وترى نجوى تكرج نحوها ابتسامتها المضيئة كسجادة بينهما.. تتلكّأ نوال أحياناً عند طاولة أخرى وتترك نجوى تنتظر.. تتصرف نوال أحياناً كعاشق ولهان يخشى افتضاح أمره،

يخشى أن يرى أي كان عمق الحفرة التي يهوي فيها وحيداً. . لذا تتلكأ أحياناً عند طاولة أخرى، أو تخلف موعداً مع نجوى، أو ترفض أن تذهب اليها في بيتها. . المقهى مكان محايد، لا يذهب أحد الى أحد.

ـ البيت أفضل.

لا سئمت الجدران. نلتقي خارجاً. الشمس رائعة.

تضحك. تقفل السماعة.

أحياناً يحدث هذا بين النساء. . أحياناً تتصرف نوال كعاشق.

لا بد تفكر نوال أن اللقاءات داخل البيوت هي للنساء، تبقى شكلاً من أشكال «الصبحية» قهوة وسكائر. نوال، حين تخرج الى المقهى فهي تخرج من النساء، تطلب في المقهى أشياء غريبة لا تتوفر عادة في البيوت. . تخرج تماماً. . تخلع بيتها وتسير. .

حين تأتي نوال الى المقهى تعود نجوى قليلاً الى البيت. . في هذا نجوى لا تشبه نوال مطلقاً. فنجوى تكره الكثرة ولا ترتاح للأمكنة التي تكون فيها عرضة للآخرين لأنها مجال كبير لسوء التفاهم، ملعب فسيح لمخيلات فارغة أو فاسدة. ينظرون ساقيها الملفوفتين ويخترعون شخصاً لا يشبهها. نوال ستقول: ـ ولكن هذا شيء رائع. . يوماً ما سيكشف عليك الطبيب الشرعي، يهز رأسه أسفاً ويقول: الخوف. . لقد اختنق جسدها بخوفه.

ـ هذا غير صحيح. . أنا أحب أن يعرفني الناس قليلاً، أن أتدخل في صورتي، أن أكون طرفاً في هذه العلاقة وإلا. . فهذا مخيف.

ـ الكلام، ستصرخ نوال، تريدين سحب هـذه الكتلة المرعـوبة وراء حاجز الكلام. تريدين أن يعرف الآخرون أية امـرأة مستحيلة أنتِ، أية امرأة ذكية، مذهلة، بعيدة وقديسـة. تريـدينهم أن يقعوا في المساحة العازلة، في الكلام المضاد للجسد، تريدين فرصة كاملة لغوايتهم، ثم تعاقبينهم، هذا فظيع، يا إلهي هذه المرأة..

وستقهقه نوال..

تأخرت.. لعلّها خططت لذلك.. هذه سخافة.

يشتد الازدحام قليلاً وتتكثف سحب الدخـان الزرقـاء المتهاديـة فـوق الـرؤوس المسـترخيـة.. تنتقـل نجـوى بنـظرهـا بتؤدة بـين الطاولات. تنظر بحشرية طلبات الزبائن بين يدي الغرسون وتعـود الى تفحص الـوجـوه التي تخـرج من الـطاولات البيضـاء كنبـاتـات لـطيفة. تلتقي بنـظرات كثيرة. أكـثرها لامبـاليـة. كـأنها تنـظر ولا ترى.. هكذا أفضل. لكن بعض النظرات تنظر وترى، و.. كأنها تحـاول شيئاً. تعـود الى طاولتهـا. ترى عـلى منفضتهـا سيجـارتـين مشتعلتين، تطفىء واحدة وتنظر الى ساعتها.

أبقى خمس دقائق بعد. تقول ذلك وكـأنها تحاول تمـريناً صعبـاً. تـطلب فنجان قهـوة ثم تنـدم. كـان الأجـدر أن أطلب كـوبـاً من الشاي.

الآن طال مكوث المرأة الوحيدة في المقهى واشتدت كثافة الدائرة حولها. لعلهم بدأوا التخمين: إنها هنـا لوحـدها.. ليست بـانتظار أحد. امرأة ضجرة وتدخن في مقهى. امـرأة بكامـل عدتهـا. امرأة مشرعة لأي احتمال. امرأة في حال سكون يتحرق للحـركة. هكـذا لا بد يفكرون.

تزيد نجوى من انحناءة رأسها كأنها تخبئه.. تضائل من المساحة التي يشغلها جسدها على الكرسي. تحس شيئاً حاراً على رقبتها من الخلف.. هنا إذاً ينظرون الآن. تلتفت لتفاجئهم وتردهم. لا أحد ينظر إليها.. لا أحد البتة.. تستوي في جلستها. ياللغرور!

ترشف قهوتها، تكسر مكعب السكر الثاني وتلقي به في الفنجان.

تأخرت نوال

كم نحب الأشياء التي تشبهنا. حين ستجلس نوال على هذه الكرسي سيمتلىء المكان بنا. وسأعاود النظر الى استقامة رقبتها الرقيقة والى يديها الصغيرتين المشغولتين أبداً بالتلويح والإيضاح. قبلتها السريعة على وجنتي تشبه قليلاً قبلة أمي وهي متأنقة مسرعة للخروج من البيت.

صوتها الذي يعلو ويخفت، غمزة عينها المتواطئة، تمثيلياتها السريعة اللاهثة، شكواها التي تحرص دائماً على عدم اكتمالها إلا في القهقهات، فرحها العظيم بأقراطي الجديدة.. وحزنها السريع العطب الذي يخرج أحياناً منها كجنين ميت يلهو بيننا بقلبه الأزرق.. كل هذا وأشياء أخرى كثيرة تجعل نوال تشبه أمي قليلاً، أو تشبهني، حين أكون مساءً وحيدة في البيت وفي بداية نعاسي.

لن تأتي نوال.. وأنا.. سأبقى قليلاً.

يبدو أن زوار المقهى المسائيين قد اكتملوا الآن..

حركة فاضحة..

تدخل امرأة مصطحبة جمالها كفيل مبهرج للسيرك.

تدخل امرأة لا تحتمل حركة المقهى العادية ذبذبة جمالها الشديد التأنق فيعتكر المقهى ثم ينفض رأسه باتجاهها كالديك. .

يرتفع اللغط فجأة بعد أن تخلع معطفها وتلقيه على المقعد الجلدي وتبتسم للرجل قبالتها. .

تعجب نجوى من أمر تلك المرأة التي يبدو وكأنها ستكتفي بهذه الحركة المقفلة. . تتخيل نجوى أن على امرأة في مثل جمالها أن تقف في هذا المكان كالمعلمة، تطرق بمسطرتها طرقات سريعة متلاحقة وتبدأ الدرس، تبدأ أي شيء يجعل الآخرين يتابعونها وينتظمون حسبها. . . ولكن، أن تجلس هكذا كالآخرين، وكأنها من طينتهم؟!. .

إنها ليست بعيدة عن نجوى بحيث يتسنى لنجوى الآن أن تتأكد من ذلك الانطباع الغريب: إنها فعلاً امرأة بمنتهى التواضع. تتكلم وتبتسم وتهز رأسها وترتشف كأسها ذا اللون العقيقي الداكن كأي انسان عادي. . ولا يبدو الرجل قبالتها منهكاً أو مرتبكاً. . حتى أنه قليل الابتسام. لا بد إذاً أن يكون فاحش الثراء. .

عجيبة أناقة هذه المرأة. . تذهب الى شكل أظافرها القصيرة واهتزاز شعرها النظيف اللامع على جبهتها البيضاء المضيئة. . إنه الكمال الذي يذكر أحياناً بموضوع الخالق. .

المقهى من حول المرأة الجميلة حديقة للرغبات الخفيفة والابتسامات الخفيفة.

إلا أن الرجل الذي دخل وراءها وخيّل للجالسين الى الطاولات أنه معها لم يكن كذلك. . إنه الوحيد الذي يبدو ذا وزن الآن في هذا الجو المتطاير السريع التبخّر. . وحده يجلس الى تحت ولا تعلو

وجهه ابتسامة حتى أن من ينظر إليه يخاله مرتبكاً وغير مرتاح في جلسته و. . يحاول ألا ينظر مباشرة الى حيث تجلس المرأة الجميلة. .

الآن، كل شيء في هذا الرجل يوحي بالانقطاع عن كل ما في داخل المقهى الفسيح. . كأنه أُدخل بالقوة، أو كأنه دخل خطأً الى هذا المكان وما عاد بوسعه، محرجاً، أن يخرج منه.

إنه يلتقط سيجارة من علبته، يشعلها، ثم يتلهى بعود الثقاب دون أن يتوقف، بين الفينة والأخرى، عن استراق النظر الى المرأة الجميلة اللامبالية تماماً. .

تنظر نجوى ملياً إليه. . إنه شاحب ويحاول جاهداً أن يُشعر من ينظر إليه أنه مرتاح تماماً، لاهٍ. . وسعيد. . لذا يبدأ بشدّ سحّاب سترته البلاستيكية السوداء إلى أسفل لكن السحّاب يعلق قليلاً في موضعين أو ثلاثة فيعالجه الرجل الأسمر برفق ثم ينظر بتمهّل حوله. . تنظر نجوى الى ما تحت طاولة الرجل الأسمر بتحفظ فتبان لها كلساته الواسعة الساق وقد تدلت قليلاً الى أسفل باتجاه حذائه المتسخ. . فتحزن قليلاً. .

ينظر الرجل الأسمر الآن الى جليس المرأة الجميلة بلا حرج بعد أن استرد المقهى قليلاً إيقاعه السابق. تدخل امرأة مستعجلة تتفحص الجالسين فلا يبدو أنها وجدت من تبحث عنه. . تخرج. . تخرج معها العيون قليلاً. لكن الرجل الأسمر لا يُلقي بالاً. . إنه الآن ينتقل بين قهوته، والمرأة الجميلة. .

يا إلهي. . قالت نجوى. . إنه يحبها. كان يتبعها في الشارع. . ثم دخل المقهى وراءها. . وهو الآن لا يستطيع الانصراف.

إنه جميل ولكنه شديد النحول هذا الرجل الأسمر، ورغبت نجوى أن تعطيه اسماً. قالت: قد يكون اسمه.. يوسف..

يا لحرقة قلبي يا يوسف.. هذه امرأة كالنجم وأنت ما فهمت أن حلمك قد انقطع ما إن وصلتْ الى هذا المكان وسكنتْ فيه. أن تكون وراءها لهو أكثر صعوبة من أن تكون أمامها في جهلك، وقد غدت حركتها المقننة الآن في منتهى العبث والانعزال.. كيف ترتكب يا يوسف يوماً كهذا في شبابك المصرور داخل هذه السترة التعسة التي تدّعي الجلد..!

كم ترغب الآن نجوى أن ينظر.. يوسف.. إليها..

إنها مستعدة أن تبتسم له.. هكذا.. ما لم تجرؤ يوماً على فعله. لو طلب منها سوف تتبعه.. كم ترغب أن ينظر في عينيها وأن يقول شيئاً.. علّ ذلك لأنه الوحيدُ الأكثر جبناً منها في هذا المكان؟!

أنظر إليّ يا يوسف.. أنا أيضاً أحبك وأنت لا تبالي.

ينظر الرجل الأسمر الى نجوى لكنه لا يراها.. لم ينتبه حتى لوجهها المفتوح.. يتابع رحلته بين قهوته والمرأة الجميلة ويضيف سقف المقهى وأنواره الصغيرة الكثيرة.

يتحرك فجأة ويقف.. تحزن نجوى كثيراً وتكاد..

يتجه الى الداخل ويكلّم الغرسون.. يدفع. تحتار نجوى كثيراً. تنظر حولها. يكاد المقهى أن يفرغ. تنظرُ خارجاً.. المرأة الجميلة تبتعد متأبطة ذراع الرجل الذي كان معها. تختفي المرأة الجميلة ويظهر الليل فجأة في الخارج.. المساء القاتم جداً..

تقف نجوى. تترك الحساب تحت المنفضة بسرعة. يخرج الشاب

الأسمر. سوف يتبع المرأة الجميلة. المجنون!

نجوى تتبعه.

صوت يناديها. . تلتفت. الغرسون يلوّح لها بكيس النايلون وهو يصطنع ابتسامة: «الأشياء الملغّمة. تعرفين. .» تبتسم نجوى وتلتقط كيسها وتسرع. . تصل الى الرصيف فلا تجد يوسف. . ولا تجدهما. .

المارّة قليلون. . ومسرعون. . تطشّ رصاصة بعيدة كنقطة ماء في زيت هذا المساء الغالي. النسمة باردة. . تلفّ نجوى الشال الصوفي جيداً حول رقبتها. تفتح حقيبتها وتلتقط مفاتيح السيّارة. . .

لقد تأخرتُ. . تفكّر نجوى. . كيف كنتُ أنوي اللحاق به. . وإلى أين؟. . وكأن ما حدث الساعة لم يكن سوى حلم بعيد، لكن ذلك لم يمنع نجوى من الشعور بالأسف العميق. . والخيبة.

كيف نتركهم يغيبون هؤلاء الغرباء الذين نلتقيهم عند تقاطع خطوط أقدارنا اللاهثة ونحبهم بهذا القدر؟

كيف نتركهم يعبرون هؤلاء الذين يمرون كالشهب المشتعلة في سمائنا المنفوخة الفارغة. . ونعرفهم، كأنهم حرّاس أبراج أحلامنا الليلية الماثلة، المنسيّة في أول الصباح. .

هؤلاء، حبنا الحقيقي، النصف الملائم لرغبتنا، شقيق حيرتنا الذابلة. .

تتابع نجوى سيرها وتصل الى موقف السيارات العام الخالي تماماً.

خطوات سريعة وراءها. تلتفت. إنه هو.. يوسف.. وجهه يقابل وجهها تماماً.. وعيناه. تكاد تبتسم لكن..

يلتمع في يده نصل معدني يكاد طرفه الحادّ يلامس بطنها..

ـ هاتي حقيبتك.. والمفاتيح إياكِ أن تتنفسي أو بقرتُ بطنك.

يبتعد الشاب الأسمر النحيل ذو السترة السوداء التي تدعي الجلد والجوارب المتدلية نحو الحذاء المتسخ في سيارة نجوى..

يبتعد كثيراً.. ويغيب

تفكر نجوى.. حسناً.. لعلّ اسمه كان يوسف..

(الى بشرّي)

كانت ندى تنظر بشغف من زجاج السيارة، بين الأمتعة الكثيرة، فتتالى سبحة القرى الصغيرة كأنها تنشّي ياقات الأودية المتداخلة. عن بعد، تبدو بعض البيوت قد أضيفت لاستكمال الشكل الخطر فقط، للمبالغة في اللعب، إذ يبدو مستحيلاً على سكانها الخروج منها دون الوقوع مباشرة في فراغ الوادي السحيق. وكانت ندى تتساءل ما الذي حدا بجدي وجدتي الأقدمين الى هذا الارتفاع المدوِّخ الوعر الخطر البارد، ليقررا العيش والانجاب هنا. . لم تكن تجد جواباً لكنها كانت تشعر بحب وفخر تجاههم، تجاه قوتهم، عنادهم وتفردهم.

منعطف أخير قبل أن تراها فجأة، كاملة، كانت في كل صيف، تخاف الا تعرفها، أن تدخل ساحتها الراكدة في طنين الذبابات القليلة، تحت وهج الظهيرة قبل أن تخرج القرية كلها، دفعة واحدة، وتأخذ تحزر شبابيك بيتها الحمراء الصغيرة بين البيوت المتراكمة تحت قبة الكنيسة الكبيرة. كانت القبّة كبيرة لدرجة أنه كان يبدو لندى أنها غطاء صحن كبير قد أنزل من فوق على قرية ألعاب.

في كل مرة كانت القرية لا تتغير، تتقدم الى عيني ندى تماماً كما

كانت. وكأنها كانت تخاف على الصبية الصغيرة من الخوف عليها. فتنتظرها من الصيف الى الصيف بالوجوه التي تتردد في ساحتها، بصور الأفلام الهندْية المتشابهة في السينما القديمة، بهوائها البارد الناشف الذي كان يضغط خفيفاً على الحنجرة المهتاجة المشتاقة الى تسمية الأشياء بأسمائها الماضية الثابتة.

كان الدكان لا يزال في مكانه مع بعض التغييرات الصغيرة التي لا تربك الذاكرة، كأن يتجدد براد البوظة، أو كأن تنتقل أوعية المطبخ البلاستيكية المتكاثرة الملونة الى الخارج.

الطريق المتعرج الهابط بحدّة الى بيت ندى كان لا يزال هو هو. تحشره من صيف لآخر بعض الشرفات الباطونية الصغيرة، أو تكبر على جدرانه النباتات المعرشة..

بعض العجائز يزددن عجزاً، بعضهن يغادرن الى المقبرة القريبة.. أولاد الجيران والأهل يكبرون قليلاً، يزدادون عدداً ولكنهم يتشابهون الى درجة لا تضطرها للسؤال أمام أعينهم المفتوحة على آخرها وأفواههم الحمراء المبتسمة. كانوا يصيحون: «لقد قدموا.. لقد قدموا» وكأنهم يعلنون انقضاء فصل الشتاء الرتيب ويدقّون الجرس لفرصة الصيف.

قبل أن تغادر ندى.. تغيّرت القرية قليلاً..

اتسعت المقبرة على نحو غير طبيعي كسر إيقاعها العادي البطيء..

دُقت أجراس الكنائس في مناسبات ودعوات لم تعرفها من قبل. تغيّر شكل أحد الدكاكين فعلاه طابق حديث الشكل شُكّ في مقدمته علم ذو قماش جديد يلفت لونه الطازج العين التي اعتادت

ألوان الساحة المتقاربة المتجانسة المطفأة.. ثم أتت أعلام أخرى.

أصدقاء كثيرون غادروا
منهم الى الخارج
منهم الى موت مفاجىء وشديد الوضوح...

... (كان الرصاص يتحفز في فوهات البنادق القديمة جداً كما في فوهات الرشاشات الحديثة جداً.. لكن الصمت كان يحمل دفق الدم في القلب إلى طبل الأذنين، وكانت القرية كوكباً أحمر صغيراً يدور بجنون منفصلاً عن سيرته. كل ما له علاقة بالدورة العادية للأشياء كان قد توقف حتى يُخيّل للمرء أن النبات قد انقطع الآن عن نموه الذي كان قد بدأه منذ ملايين السنين. كان كل شيء يتوجه صعوداً من الحارة التحتا، أو نزولاً من الحارة الفوقا الى الساحة، بانتظار الجثة.

كانت النسوة الحافيات الأقدام المشعثات الشعر يحملن محارم كبيرة بيضاء (هي للتلويح لا للبكاء) يدسسنها بخفةٍ في أثدائهن ويتحركن بسرعة وارتباك سوف يستويان عند بدء الصراخ المختزن بإصرار في الحناجر والصدور المنتفخة. بعض المتسربلات بالسواد كن يعدن أدراجهن راكضات باتجاه البيوت كي يخلعن الثياب السوداء بعدما انصبت لعنات الكبيرات العارفات على رؤوسهن.

المظهر العاقل الوحيد لما يجري كان تركيز مكبرات الصوت على الدور الكبيرة المشرفة على حفرة الساحة التي امتلأت الآن وأصبحت كخليّة كبيرة لنمل من فصيلة نادرة.. وكانت الأجراس قد توقفت تماماً عن إطلاق نداءاتها السريعة المتكررة.

لم يكن ما يجري يشبه المأتم في شيء.. ففرق الكشافة وجمعية

سيدات الرحمة وكل الهيئات التي تتقدم الحفل في ظرف كهذا كانت غائبة، حتى دقات الجرس الفرحة المربعة الأصداء، ولباس النسوة الذي حافظ على ألوانه المتفاوتة بين الفاقع للصغيرات والداكن للكبيرات. . القادم في غربة كان ليعتقد، عن بعد، أنه عرس كبير، ولكنه عرس غريب في درجة فوضاه وفي انتشاره.

الوجوه كانت جامدة على أجساد شديدة التوتر قليلة الحركة.

الوجوه كانت متشابهة الى حد كبير حتى ليخال المرء.أن الجميع أخوة في هذا المكان.

الوجوه كانت مترقبة. . ولكنّه الترقب لحدث لن يتم. . لحدث، إذا تمّ، فلن يمكن فهمه أو التقاطه أو اللحاق به. لذا كانت الوجوه شاحبة وساكنة وخالية من أي تعبير واضح الصفة أو المرجع.

كانوا بانتظار الجثة وكأنها ستأتي من فوق، أجسادهم كانت تميل الى مدخل القرية لكنهم، كأنهم كانوا ينتظرونها من مكان بعيد لدرجة أنه لا يمكن أن يقع الا في السماء.

كان يمكن بسهولة تصوّر البيوت خالية تماماً ومشرعة الأبواب. لكن السطوح الصغيرة المتقاربة التي تبستطيع النفاذ الى الساحة كانت ملآنة بالناس الذين لمرض أو عجز أقعدهم لم تحملهم أجسادهم الى هناك. الأطفال كانوا على علم بالحدث، كانوا على الأصح على علم بحدث يجعل آباءهم شديدي الشحوب والوهن والضعف وكثيري الحركة النزقة المجانية في آن. لذا كانوا يلبثون على مقربة من أمهاتهم يمسكونهن بالتنانير بأيدٍ وكأنها لن تنفتح ثانية. كانوا شديدي الشبه بالكبار لا يضحكون ولا يبكون ولا يطلبون شيئاً. . فقط كان يبدو عليهم فزع خفيف كامن.

حين أطلّت الجثة عابرةً المنعطف الكبير عند مدخل القرية، انفلت كل شيء، دفعة واحدة.. تحركوا كجسد كبير واحد وانطلقوا باتجاهها في اللحظة نفسها، كأنهم عرفوا بالكشف لا بالمشاهدة أو بانتقال الخبر.

انطلقت البنادق في انفجار واحد طويل سرعان ما أطفأته النساء. كانت زغاريدهن المنتهية بعواء طويل وعميق أشد شراسة من صوت الرصاص.

كن يزغردن ويشققن ثيابهن ويفتحن أذرعتهن كي ينطلق الصوت المفجوع من العظم الى عظم السماء..

كن يزغردن وأيديهن على رؤوسهن ولا يتوقفن عن الركض باتجاه الجثة.

كن يزغردن ويقعن ولا يتوقفن عن الزغردة والصراخ والركض.

كن يزغردن وكأنهن لن يفعلن شيئاً آخر بعد في حياتهن التعسة إن لم تنشقّ حجب الجحيم.

كن يزغردن وكأنهن يلدن من أفواههن.. كانت حناجرهن كأنها، على أجسادهن التي تتمايل بالرقص العنيف، كأنها فوق رؤوسهن أعلى من رؤوسهن كانت حناجرهن كأنها شعلة الروح فوق رؤوس قديسي الأيقونات.

كانوا كلهم في منطقة اللعنة. كانوا كلهم قبل البكاء بكثير، كانوا قبل موته لكنه الآن بينهم، جثة كالميتين تماماً.. كانوا كلهم قبل خسارته التي.. لن تعوّض. وكانت برادة أرواحهم الشقية تتمغنط نحوه.

في جبلهم المنقطع، البعيد عن العاصمة، لم يلتفت أحد منهم الى الوهم الذي يسقط لتوه كوهم... انهم خارج انشاء الشهادة. هذه المرة عادوا الى ترك الوطن الذي عناهم لسنوات قليلة وصغيرة كواحد من تفاصيل الفصل الدافىء..

بين ثلجهم ومواشيهم ومؤونتهم وحبهم القاسي، يعبر الوطن كالغريب الفقير. يطعمونه، يدفئونه فترة لكنهم، عند أصغر خطأ يتركونه ويعودون الى مرتفعاتهم.

من نافذة المطبخ الصغيرة، رأت ندى، التي لن تجرؤ على الخروج، رأت الجثة تتحرك ببطء على الطريق الطويل نحو القرية.

رأت ندى المقرورة الشاب العائد.

هذه المرة كان يعود فعلاً.

وكان يعود بها الى القرية.

كان يعود مما كان بينهما، يعود إليها، من أفكاره التي أخذته ومن أفكارها التي قتلته.

الآن.. يمنحها فرصة أن يتشابها.. أن ينتميا، كما كانا دائماً، الى المكان الواحد الذي لا يترك فرصة كبيرة للاختلاف.. ذلك أنه الآن، في وضوحه وهدوئه وبراءته حر ووحيد..

يا لخسارتي.. كانت ندى تتمتم وجسدها يتضاءل حتى يكاد ينفصل عن الأرض أو يدخل فيها..

يا لخسارتي.. وتمنت ندى لو أن لها جسداً هائلاً، تزغرد وترقص وتركض وتقع وتعوي به..

لكن ذلك، على أي حال، كان ممنوعاً عليها...)

أصدقاء كثيرون غادروا إذاً..

منهم الى الخارج
منهم الى موت مفاجىء وشديد الوضوح

ومنهم أيضاً الى موت داخلي أقل وضوحاً، تـرك أثره عـلى شكل الوجوه التي غادرت ألفتها فلم تعد ندى تعرفها. .

يا للمكان!

قالت ندى وهي تطجّ علٰى أرض القرية كـطابة ارتفعت سنـوات طويلة.

إنهِ النصف الأخير من شهر آب. . والمساء البخـاري ينزل بتؤدة على المساحة الوحيدة التي كانت ندى، منذ سنـوات تقارب العشر، تلفها بسبابتها وهي تعلن بهوى وخيلاء هذا لي.

هذا المكان لا ندفع إيجـاره ولا ننتقل منـه ولا نغلقه، . . وحـين نعـود إليه لا يفـاجأ. . ولا يتغـيّر. فقط يبترد تحت ثلج يعـرفه منـذ آلاف السنين، وينتظرنا. . . .

حـين تفتح أمي الشبـابيك وتجـرّ الفرش الى الشمس كـان يثقل نصفي السفلي وتترنح ركبتاي فرحاً.

يحمل أبي درفة شباك كسر زجاجه حجر مشاكس، الى قريب لـه في السـاحة. ثم يمـلأ قدحـه عرقـاً حليبياً ينفـخ ببرودتـه الى خارج الـزجاج الـرقيق المحفورة عليـه عناقيـد بلورية شـاحبة. . وتـرشـح حنجـرة أبي بحـدائيّـات والـده وجـده الـذي دنق في الثلج وهـو في طريقه الى حقله البعيد. . وعمتي تمسح دموعاً صغيرة بغطاء رأسهـا الأسود وتهز برأسها وهي ترف برموشها القصَيرة ناحيـة أمي قبل أن تلتقط الكأس البيضاء وترشف رشفتها الخجولة الأولى.

هذا المكان لي. . هذا المكان لي. .

أية متعة في التكرار!

هذا المكان لي، فيه اتصل بجسدها الدافىء الصلب الذي يمرر كفه على ركبتي التعبتين حتى أغفو، وعلى قلبي الصغير تنفض عنه المسائل الحسابية وعجلات باص المدرسة الباكر وثياب الآحاد الضيقة وزوار المناسبات الغرباء. . تعود أمي الى حنان أصيل وتنسى تحذيراتها المتكررة على سلوكي البيروتي من أجل أن يزداد انضباطاً وطواعية ولياقة. .

كانت ترسل زفراتها الباردة الطويلة على كوابيسي الصغيرة، حين ترفعني أية امرأة عن تراب الطريق، تأخذني في حضنها، تمسح دموعي وهي تضمد ركبتي المفتوحة ولا تعيدني الى أمي الا بعد أن آكل عندها علامة لشفائي. . هنا، يعرفونني على الطريق، يعطونني تفاحة أو منقوشة ساخنة فقط لأنني أشبه أمي، أو أبي، أو أشبه جدتي التقيّة.

تتململ ندى في جلستها، تلقي برأسها على الكنبة النبيذية الضخمة وترفع ساقيها المتعبتين على الطاولة الصغيرة. . يبدو التنصت هنا وكأنه الى الخارج. . كأنه فراغ الرأس الى الفضاء الخاوي. رأسها الثابت الثقيل يدلق سوائله الزنخة ومتاعه البخس وهو يستقبل أصوات الصغار الذين لم تعد تتعرف إليهم، ولم تعد تسأل. يصل ضجيج لكنتهم المتوحشة الأليفة إليها عبر النافذة فتجد ذلك كافياً. بل كم هذا كان على جسد صغير وقليل لأنه وحيد، كم هذا كافٍ على عصب فارغ ومربوط الى آلاف العجلات لأنه خليّة وحيدة خارج النسيج المبتعد. . .

هل فسد كل شيء؟

هـذا هو وجهـه . . . وجه الـرجل الـذي كان شـاباً حـين أحبته ندى . . لم يتغيّر كثـيراً . . فقط تعب وانطفـأت فيه بعض الأشيـاء، لعلّهـا الحركـة . . فهو أكـثر ثباتـاً ، أكثر تقنينـاً لنفسـه . . هـا يـده التي كـانت ملامستهـا تجعل القلب ينفـطر ويغور الى الـركبتين: والـوجـه ينضح دماً . . ها يده أمامها الآن ، عـلى الطاولـة كعصفور صغـير ميت على طاولة . . لكن، ما معنى هذا الشوق المؤذي الى النظر اليه، الى لكزه خفية حتى يتحـرك ويتكلم ويشبه نفسـه هذا الإصرار التعبـان عـلى إعادتـه الى المكان الـذي غادرتـه ندى منـذ زمن بعيد . . عـلى القبض عليه متلبساً بها، متلبساً بإحساسها بزمن لا تريده أن يتغـيّر أو أن يكون قد تغيّر . .

اللعنة على الذي لا يدخل المكان الذي نعده لـه ولو كـان فخاً! تقول: «الأجدر بكم أن تتغـيروا . . هذا مستحيـل» ثم تضع يـدها على قلبها . . يا للتهريج . .

وتقـول: «لم يتغـيّر شيء . . وكـأنني مـا غـادرتكم . . هـذه فضيحة» . . .

يـا للكذب اليـائس . . مـاذا أفعـل لـو كنت تـوقفت عن حبي ، عني ، ماذا أفعل لو حسبنا أشياءنا ووجدنا أننا لم ننسَ أشياء واحدنا عند الآخر؟ . . .

تسأل: عما تسألين أيتها المرأة .

فتجيبها المرأة : عن المكان الذي نقضي عمرنا نقترب منه فينقضي العمـر . . عن ذاكرة كلما قـرعت طبلاً لهـا نـدفتـك بعصـاه كقـطن المنجّد .

عن وقت تنعقين فوقه كغراب غريب ومغرور، كغراب ينعق ولا

يتوقف عن النظر الى ساعته. . ألا يجدر بامرأة أنكرت خجلاً في العشرين أن تكف عن إلواء رقبتها المضروبة الى الخلف؟!.

كيف هنتُ عليكِ؟ سألت ندى قريتها.

كيف هان عليكِ أن تسكتي عن ادعاءاتي بمغادرتك الى نضج العقل والخيارات، وأنت تعرفين أن ما من أحد غادر مكاناً عرفه، فكيف لي أنا التي أشحط السنوات وكأني لم أقطع يوماً الا وحملت اليوم السابق كصبي مشلول على رقبتي.

أول ما كنت أتشكل عليكِ وأشكلكِ علي اكتملت. . استغنيتِ عني وابتعدتِ. . مرغمةً أم مختارة، لا يهم، أدلق عليك دلعي كالغراء وأريد أجوبة واضحة: ماذا فعلتِ حين غادرتك وحرنت كبغلٍ غرّ؟

التقينا كأختين ولكن على لهفة وعجل. . على عجل.

وأنتِ كأنكِ لا تبالين. . بقيت مكانك. لم تتفتي حزناً عليّ. .!
وها أنا أعود اليك اليوم وأجد. . لم تتغيّري!

ها أنذا. . أخبط بقدمي على أرضك وأقول: هذا أنا رجعت لأراك، لأفهمك أنني ما أزال. . وبأنني كاللص أعود سابحة عكس سواقيكِ، كاللص أدخل من باب تجهلينه، ترفضينه، تقفلينه. . أدخل مباشرةً الى قلبكِ، أمسكه بيدي الاثنتين وأعيد ارتكاب حبي الثقيل. . .

لا يهمني كم من الموتى ابتلعتِ وكيف عادوا اليك ومن أين. . كم لُعنتِ، كم خبّصتِ في وحولك البلّافة. . وكم آلمتكِ خفية كحذاءٍ ضيق. . كم بكيتِ مثلي سراً، وكم نمتِ مثلي تحت ثلج طويل.

أقـرض ثقبي كجـرذ داهيــة وأدخـل الى عشقي لهم. . ألكــز كراهيتهم بكوعي وأبتسم. . أقـول. هذا أنـا. . لم أتغيّر كثـيراً، ما زلت أشهى أطبـاقكم للحقـد والـرذل، يسيـل لي لعــاب النكـران والتشفّي، لكنهم أناسها، تفاصيلها الصغيرة، ولا مهرب مني سوى إليها. . وهي ترسـل أخضرها الحنـون تمامـاً كما كـانت ترسله منـذ سنوات بعيدة، تغفو بيوتها الى جانبي في الفـراش فأزيـح لأصوائهـا المرتبكة الصغيرة. . أقبلها من بعيد، أردّ فوقها اللحاف وألهث عـلى حفافيها الملتمعة بزيت سرّي تحت ضوء قمري عيني حتى تدفأ. . .

تبدو ندى وكأنها تعتذر. . تقول لنفسها هذا سوء فهم فـظيع. . صحيح أنها تتلطى حين تخرج في مسائهـا الساكن وتتفـادى كنعامـة ذكية وجوه الســاهرين القليلة أو أعـين الراتعـين في فراغ الـوقت في الساحة، لكن هذه تفاصيل شديـدة السخف إذا ما وصلت معـرفة الإنسان الى التيقن من مكان رقاده الأخير.

وتعرف ندى أن لا وقت للمكوث وأن لا مكان لـلإقامـة لذلـك تصر على وقتها القليل، على لغتهـا المرتبكـة المتعثرة، عـلى التباسهـا وتأتأتها. . . ذلك ان القرية، هي، باقية. . لن تغادر وقطرة النـدى التي تهرقها لها من شباك صغير الى الذي كان سريرها، إنما تهديدها إياها بخجل وارتباك وتتناسى، وشجرهـا المتردد الى الـوادي العميق إنما يحتفظ في دفتر ذاكرته السري بصورة وجه ندى كاملةً، كـما كان وكما سيصير. . .

لم يحصل أن تلجأ ندى الى الكتابة!

الى ابتكـار غفـرانها الخـاص الكـامـل المـريح، غفـرانها الـذي يتنصل، غفرانها الجبان الصغير. .

ربما الكتابة التي لم يعد يملك الخائن سواها

الكتابة. الرسائل السرية التي تذهب الى العتاب والى دموع خجولة وحارة، حيث ينزلق الخيال الى اشتهائك من مجرات بعيدة، حيث ارتد اليكِ من خيانات صغيرة متكررة...

الكتابة ـ الشفقة ـ الاستجداء ـ البؤس الصغير: رسائل الإنشاء عن «اتهامات ارتجلها كعاشق يتوقع خيانة آتية من أفق المعشوق ذلك الافق الذي لا يلبث أن يقترب حتى يتلاشى» أو «كأننا مرة أخرى أُختان تشابهتا حتى أضاعتا كل الفرص...».

بالكتابة، بمفتاح اللص الذي يدخل كل الأقفال، فينتصب اللص كأمير: «أدخل اليك بغلطة أخرى وأعتبر أن لقلبك قفلاً».. واسترسل.. ثم أغمز لك بعيني وأعض على شفتي أن لا بأس، غضّي الطرف، افعلي وكأنك لا ترينني...

«أرجو ألا أراكِ قبل السنة القادمة».. قالت ندى وهي ترفع يدها باتجاه القرية.. انتهرت الولد في المَقعد الخلفي ثم ألقت من زجاج السيارة نظرة أخيرة.. إنها قرية جميلة بالفعل ولكنها تشبه، قليلاً أو كثيراً، كل القرى في هذه المنطقة، وفي مناطق أخرى.

رفعت ندى الزجاج فالهواء بارد في مثل هذا الوقت الباكر نظرت أمامها... سوّت بسبابتها وضع النظارتين...

ثم داست بقوة على دعسة البنزين وهي تسمع أصوات قصف بعيد تردّده الأودية.

كانت سامية ـ المتورمة الساقين قليلاً لشدّة القيظ والرطوبة ـ تعمل بنشاط إستثنائي.

ليست فقط الزنخة:

سمكة وراء سمكة. وراء سمكة وراء سمكة: لا لؤلؤ.

فقط خراء أسود لزج وطويل تسحبه بصعوبة وتخبط يدها على الجريدة لينزلق عن أصابعها.

خراء سمك بخراء سمك. فكّرت...

تعود الى السكينة. صارت مسكتها الخشبية كالطحلب. تمشي بها سامية عكس تيار الحراشف. تطير الحراشف في كل اتجاه. تمطّ سامية شفتها الآن بمرح وتنفخ واحدة علقت على أنفها. تبقى سمكة واحدة. اني أشعر بالفخر لسرعتي في العمل، فكرت سامية وهي تلهي بالسمكة الأخيرة في الجاط.

فتحت الحنفية على الجاط وغسلت السمكات بانتباه لئلا تلذعها الأشواك.. والحياة ورد وأشواك...

ترش سامية الملح وتنفض الجاط بخفةٍ لتختلط السمكات جيداً بالملح. تدلق السمكات بالمصفاة المعدنية الكبيرة وتضعها لتصفّي سوائلها فوق الجاط.

تقترب سامية ثانية من عيون السمكات: صافية وتترقرق بدموع متوقفة: أنا فعلاً امرأة تفهم بالسمك الطازج. تقول سامية.

تستدير الى المجلى الذي يعوم بالماء الداكن الزنخ وبالحراشف الميتة ولا تبالي. تُدخل يدها الى المصفاة الصغيرة وتبدأ بازاحة الحراشف حتى ينصرف السائل الى المجارير. يفرغ المجلى. تبدأ بجمع الحراشف الشفافة وترفعها بيديها الاثنتين الى كيس الزبالة الأرجواني. تغسل المجلى من جديد. من جديد ترفع حراشفاً الى كيس الزبالة. تغسل بأظافرها الأماكن التي نشفت عليها بقايا أحشاء السمك على يديها ثم ترفع ليفة تملأها بسائل الصابون وتأخذ علبة الڤيم وترش بغزارة.

الآن. هنا. لا مجال للاحتمالات. أن ترش الڤيم يعني ألّا يبقى أثر لمرور السمك في هذا المجلى.

وهي تفرك الڤيم بقوة وحماس داخل زوايا المجلى الممتثل، فكّرت سامية بفرح من يكتشف بيت القصيد الذي أضاعه منذ زمن طويل...

أنا امرأة.. تحب الڤيم.. كثيراً.

وقالت لن كلمة «تحب» يجب ألّا تمرّ هكذا، ببساطة لأنها حقيقة تجلي هذه اللحظة. (تجلّي في المجلى قالت سامية كمن يضع خبطاً تحت لقطته الذكية...)

الڤيم لا يخذلها مطلقاً.. ولامرّة.. ولا مرّة قالت أتمنى.. أريد أصرّ إلّا وانبرى الڤيم، دون سائر مخلوقات هذا الكوكب، إلى تحقيق رغبتها كاملةً غير منقوصة.. بالڤيم فقط تحس بفعاليتها. به فقط تقول سامية كنْ فيكون.

قد يكون صحيحاً أن نستبق الأمور ونقول إنه لا يمكن لسامية أن تتصور الحياة بدون قيم. لعل هذا ما كانت تعنيه بكلمة «أحبه». تصوروا كيف يتعطل كائن كسامية إذا حذفوا القيم من حياته.. إذا سحبوا القيم من المدينة.. وقد تصل الأمور في مدينة الحرب الأهلية هذه الى ما لا يتصوره عقل وما لا يصل اليه خيال.

أحست سامية بقلق صغير لكنها سرعان ما رفعت رأسها باتجاه سقف المطبخ الذي ينشّ الرطوبة الكلسيّة، وشكرت الله الذي لم يخلقها في أزمنة ما قبل اكتشاف القيم. وإلّا فأيّ شيء أو مخلوق كان سيملأ فراغ هذه النعمة الوحيدة الواحدة، في روحها المزنوخة باستمرار.

الا أن الفكرة ما لبثت أن اتسعت في رأس سامية اتسعت وأخذت تتنطط وتتسع وتحدث أصواتاً منفّرة مما حدا بسامية أن تزيد من اختلائها بنفسها. قلّ أكلها وازداد شحوبها واضطربت حركاتها. وصار الناس الذين يعرفونها يتحدثون باستفاضة عن أثر الحرب التي تعيشها المدينة على أعصاب الناس وخاصة النساء.

وذات صباح أحست سامية والفوضى تعمّ البيت بأنه لن يكون باستطاعتها لا عضلياً ولا نفسياً أن تقوم بواجباتها البيتية اليومية. جلست منهكة وأخذت تتحسس الشعر النابت في حاجبيها وقد استطال كثيراً. كلّ ألم يأخذ مداه ويثبت.. كل صراع آيل لا بدّ الى حلّ ولعلّ الأوان قد آن، فالانتظار والسلبية لن يجديا نفعاً..

وتركت سامية البيت.

تركت زوجها وولدها الصغير.. وقد هزّت قصتها المدينة الى درجة أن صورتها ملأت أغلفة المجلات وتصدرت صفحات الجرائد

وقد كُتب تحت الصورة بالخطّ العريض الأحمر الفاقع: ها هي امرأة القيم.

وفي الأحاديث الصحافية والمقابلات التي أجريت معها لم تتردد سامية أو تخجل بل أجابت بكل صراحة وبساطة لا تقبل الشك: لقد عانيت الأمرين لوقت طويل.. كدت أضيع. لكن القيم وجدني، أكّدني، وحّدني. من الآن وصاعداً أنا له.. للقيم.. الى الأبد. وفي تعليق لصحافية مشهورة جاء: «آن لنا أن نفهم مأساة هذه المرأة العظيمة التي لم تستطع أن تعيش حبّين كبيرين. لقد قامت بما لم تقم به امرأة من قبل... النساء يتركن كل شيء ويهربن الى رجال آخرين.. هي هربت الى قيمة جديدة.. جعلت العالم من حولها يعيد النظر بنظام قيمه....».

لم يتأخر العالم كثيراً على الايمان بسامية فقد توافد إعلاميون غربيون لتغطية الحدث والتكلّم إليها وإعطائها المكان الذي تستحقه: صدارة الأحداث. ومن يومها لم تعد صديقات سامية أو حتى زميلاتها أيام الدراسة لتنعمن بالهدوء إذ سرعان ما تعرّف الصحافيون النشيطون إلى بيوتهن أو حتى الى سلسلة البيوت التي هُجِّرن إليها... يحملون أسئلة من نوع: كيف ابتدأت علاقة سامية بالقيم؟.. هل كان لقيم أمها أيّ تأثير عليها آنذاك؟... ماذا كنتِ تلاحظين على سامية عندما كنتما تدخلان المطبخ وعلبة القيم على زاوية المجلى؟.. ألم تحدثك يوماً عنه؟.. هل في طفولتها ما كان ينبىء بأنها ستصل الى هذه «القيمية»؟.. وتتالت الأبحاث «القيمية» في البسيكولوجيا وعلم الاجتماع وحركات تحرير المرأة ومواضيع التنمية والبيو ـ سلطة.. و...

حين رأيت سامية للمرة الأخيرة كانت في شقتها. في الحقيقة لم أستطع الوصول إليها. كانت فلاشات آلات التصوير تفرقع من حولها وهي تبتسم بحنان محتضنةً علبة القيم الخضراء ووراءها بوستر كبير، لأحد الفنانين الكبار، يملأ الحائط.. بوستر للعلبة الجميلة وهي ترشّ مسحوقها الأبيض على مدينة نائمة غارقة في سلام ضوء القمر وقد كُتب في أسفل الصورة العملاقة: «قيم الطمأنينة والرجاء.. قيم خيار مستقبلنا الأبيض..».

أما قماش الأثاث والستائر وبلاط الأرض ومنافض السجائر... فقد كنتَ تقرأ عليها وبكافة تجليات الجوهر الأوحد:

Vim	Vim	Vim	Vim	Vim
Vim	Vim	Vim	Vim	Vim

ولكم كانت سامية سعيدة!

«أنا في انتظارك ملّيت
أنا في انتظاااارك خلّيت
ناري في ضلوعي وحطيت. . إيدي على خدي
وعدّيت بالثانية غيابك ولا جيت. . .
يا ريت يا ريت يا ريت يا ريت». . .

وسهى حين تسمع أم كلثوم ليلاً، تأخذ وقتها، تأكله حبةً حبةً. . تتذوقهُ. . تنساهُ. فيمر بطيئاً ولذيذاً وفسيحاً فيتمدد جسدها داخل نفسه وتطلق بين الحين والآخر زفراتٍ طويلة تجعل الإيقاع المتكرر يحملها الى خدر بسيط يشبه حالة العشق.

لذا. . . قلّما تتابع سهى كلمات الأغنية الآن وقد تجاوزت الخامسة والثلاثين وعرفت أن اللغة إيقاع لا معانٍ. لم يعد يعذبها التكرار. لم يعد يعذبها انتظار القفلة واكتمال المعنى وغاية القول.

يا ريت. . . يا ريت يا ريت يا ريت. .

قد تذهب الى نهاية العمر ولا تجد سهى غير المتعة في السماع.

يا ريت يا ريت. . .

ولا تتعب سهى من الحركة المتكررة المتماثلة إذ هل البحر سوى

موجة متكررة متماثلة. . . وهل الحياة سوى ذلك الضرب الأعمى لطبل القلب. . .

فكيف يضجر الناس؟. . .

حتى الخريف ينزل مرتبكاً على هذه المدينة الشديدة الغرابة.

انظروا مثلاً هذه السماء

سماء نحاسية؟ أو زهرية؟ أو صفراء؟ سماء زلالية ومشدودة كظهر قط متحفز للوثوب، مضروبة بسواد غيوم موتورة تغيّر كل دقيقة من شكل ارتصافها. . سماءٌ، بقعة مفتوحة مشرفة على فوق تتدلّى منها شمس مسرعة أخيرة. .

هواءٌ مشبع بالرطوبة والدبق، كأنما الهواء هو الذي يشطف الناس من الشوارع كنربيج ضخم فينزلقون مسرعين في مداخل البنايات. . يدخلون صامتين أو. . كأن خائفين. . بعضهم يخرج رأسه من البوابة أو من الشرفة وينظر باتجاه السماء بحثاً عن مطر قد تأخر فيما هم يمسحون بمحارم الورق وجوههم ورقابهم.

الحر خانق. . كم تأخروا قالت سهى وهي تنظر نجمة كبيرة وحيدة. كم تأخروا باختراع الأقمار الصناعية للاتصال فيما بينهم. . كلما نظرت سهى نجمة أيقنت أنها تلتقي بآلاف الناس الذين ينظرونْ النجمة نفسها. . وإلا فكيف حصل أن البشر متشابهون الى هذه الدرجة على كوكبنا المدوّر؟

الحر خانق. . والكلاب خرجت بنباحها، المتصاعد يوماً بعد يوم، تقصّ شريط ليلٍ مبكّر وتتسلّم مفاتيح المدينة متعهدةً فراغها الكبير. .

يا للشرفة! يا لهذا الفراغ العظيم! يا للذّة. . .

فكرت سهى . .

كلّما رمت جارتها بكيس الزبالة الى الزاوية وعاد بقّال الدكان المقابل بربطة الخبز تحت إبطه، الى بيته، أحست سهى بنعمة هذا الليل الرحمي وبمساحاته الشاسعة المفتوحة ملعباً هائلاً لأفكارها الصغيرة . . .

لا أحد

لا شيء

لا مادة

سواي . . .

تُخرج كرسيّها الأبيض . . علبة الدخان والمنفضة . . صحن الفاكهة أو علبة البيرة . . ترفع قدميها الى الكُرسي الأبيض . .

يا ريت يا ريت يا ريت . . .

يا لمتعة الصوت

وحرقة المطربة الكبيرة تنزلق ككفّ دافىء وحنون على أذني سهى .

هل أحد يصدّق . .

تقول سهى : لنفرض، نجرّب، نلعب . . ماذا قد أتمنى . . «يا ريت» ماذا؟ لم تجهد نفسها طويلاً بالسؤال حتى لا تنفتح بالوعة «بحرة» السعادة التي تربط الآن فيها . ما من شيء للتمني أبداً . . أنا أسعد مما يكون عليه المرء في الجنّة . أنا لا أريد شيئاً . لا أحلم بأحد أو بأمر . لا أعرف أحداً أو شيئاً . لم يعد لي ندم ولا حرقة لمراد .

لا أشتهي ولا أتألم ولاأخاف . لا أنتفض لدوي انفجار، ولا

تلتقط أذناي سوى دفق وارتجاع الدم في خلاياي النظيفة.

ماذا فعلت لأستحق كل هذا؟ أي سعادة في هـذا الجزر المستمـر الى دائرة الحياة النباتية الهانئة.

هل أحد في هذه المدينة يعيش مثلي؟!

وقفت سهى عـلى الشرفة الـواسعـة وجـرّت كـرسيهـا الى قـرب النباتات المطفأة وأخذت تلاطفها علّ ذلك يعيد الى أخضرهـا بعضاً من اشتعاله القديم...

كيف لا تتلقى النبـاتات رسـائلها العـاطفية الآن وقـد أصبحت سهى في عالم وسيط بين الانسـان والنبات؟ فهي لم تعـد تجوع، إنها تعـطش. لم تعد تحس حـاجة لـلانتقـال وللحـركـة الأفقيـة. ثم إن شحـوبها المـتزايـد قـد يعني تحـوّل دمهـا التـدريجي الى الكلوروفيـل الأخضر الجميل...

لا فائدة...

لعلّه الخريف فصل الانفصال والفصم والمغادرة.. خريفٌ أدرك نباتات سهى على شرفة في الـطابق الثامن، لم يحمـل لها هـواءُ ربيع مضى غبار التزاوج أو مسحوق اللقاحات...

وهي تعـرف أنها قادمـة عـلى شتـاء تـتركهـا فيـه سهى لشـأنها، وحيـدة، فلا تـراها الا في منـاسبات شمس سـاطعة وسـماء صافيـة زرقاء...

أمر محزن..

هـذا غير صحيـح.. تمتمت سهى... في الشتـاء سَأحملك الى الـداخل حين تمـطر أو تشتـد الـريـاح... سنبقي عـلاقتنـا.. لا

تقلقي.. لا أظن أن معارك الشتاء الماضي ستعود هـذه السنة.. لا أعتقد..

اهتزت أطراف أغصان الوردة بقوة..

حسناً.. هكذا أفضـل.. لاحظي أن النبـاتات الأخـرى ليست بأفضل حال، نظرت سهى من خلال الحديد المتشابك الى الشرفات المقابلة...

بل هي أسوأ حال منك. تمتمت سهى وهي تكمل جولتها..

رأت سهى شكـلاً غريبـاً على شرفـة الطابق السـادس المقـابلة، الخالية تمـاماً من أحـواض النباتـات. صرفت النظر.. هبـطت الى الـرابع: أخضر متـوهج يمـلأ الشبـك الخشبي الأبيض الـذي يسـد الشرفة.. يسمّونه «مشربية» هذا الشبك الخشبي، «فنطزة» شرقية. أخضر متوهج صحيح لكنه من النباتات المعرشة التي تكـرهها سهى حتى العمى.. لأنها بلا احساس.. نبـاتات تمشي دائمـاً، على أي شيء، في أي اتجـاه، كيفما كـان، لا تـوقف ولا تتـأثـر بشيء.. لا تلتفت ولاتتـوقف ولا يردعهـا رادع.. أخضر رخيص ولا يبـالي.. أعطه ماءً يذهب بك الى الجحيم...

شيء مقرف...

رفعت سهى نـظرها عن العـريش بغضب، وقع نـظرها مجـدداً على الشكل الغريب في الطابق السادس... صرفته.

تـوهّج ضـوء الولّاعـة للحظة فقـالت سهى هبط الليل وسحبت نفساً عميقاً. نظرت الى أظافر يديهـا وأخذت تتسـلّى بتخليصها من بقـايا تـراب الأحواض. رفعت البـيرة الى فمها.. مـا زالت بـاردة

ترشح . . بضع نقاط انزلقت عن التنك الرقيق الى صدرهـا فنفذت بـرودتها الى مـا بين الثـديين. نفضت سهى بيـد كسـولـة الماء عن البلوزة المخرمة . . فقط تندّى ظاهر أصابعها. نظرت الى ساقيها ثم تحسستهـما بيدهـا . شعر السـاقين كـالإبـر الصغـيرة . . حسنـاً . . وجدت ما تفعله غداً قبل الظهر، هـذا إذا خفّت نسبة الـرطوبـة إذ أن العرق يجعل عجينة السكّر المطبوخ تنزلق كالصابونة على السـاق دون أن تسلخ شعرة واحدة.

ولكن . . .

انتفضت سهى وقرّبت كرسيها من حافة الشرفة . . ما هذا؟!

السادس أعتقد أنه طابق مقفل . . كانت فيـما مضى تسكنه امـرأة شـديدة الاشقـرار . . شقراء كـاذبة كـما يقولـون . . . أعتقد ذلـك. قالت سهى ، ذلك انها قليلة الانتباه الى أمور الشرفات المقابلة . .

أعتقد ذلك.. قلّصت سهى دائرة عينيها وحدّقت . . عاد رأسها الى الـوراء كالملطوش بـالكهربـاء . . نظرت شـاردة الى تنكة البـيرة وكأنها تربط عينيها الى اتجاه معـاكس لاتجاه شرفـة الطابق السـادس المقـابـل . . أخـذت تقـرأ، آليـاً، مـا كتب عـلى التنكـة الصغـيرة الخضراء، ثم تعيـد القراءة عـلى ضـوء الصـالـون الخـافت الخـارج منكسراً الى شرفتها.

دفعت سهى الكرسي بساقها ووقفت . .

الحقيقـة أن شرفة الـطابق السادس ليست مقـابلة تمـامـاً . . إنها البناية الملاصقة للبنـايةِ المقـابلة لشقة سهى . . لـذا لم تر سهى عـلى شرفة الطابق السـادس ذات الضوء الشحيـح سوى طـاولة صغـيرة عليها كتاب مغلق وكباية شاي نصف فارغة . . وساقين.

ساقان. . تستندان واحدة فوق الأخرى الى حافة الشرفة الباطونية التي تحمل قضباناً رفيعة من الألمينيوم. . ساقان تهتزان بإيقاع بطيء. . ساقان موصولتان بشورت أبيض فضفاض وشحاطة تبدو إحدى فردتيها على وشك السقوط. ساقان شديدتا الاسمرار يكسوهما شعر كثيف يلتمع تحت الضوء الشحيح كذهب ناشف.

أحست سهى ببرودة يديها حين تنحنح أحدهم بقوة على شرفة مقابلة وهو ينظر إليها. . فزعت سهى. . انتقلت من مكانها باتجاه معاكس لمكان النباتات. عملت أنها تنظر كالجميع الى السماء المكفهرة. . تنحنحت بدورها ثم عادت الى كرسيها تتلطى وراء حديد شرفتها.

اتسعت دائرة عينيها كثيراً وهي تحدّق أمامها وحاولت أن تستعيد مكانها السابق على الشرفة وأن تفكر بأي شيء يسدّ الفجوة التي انفتحت في رأسها وتسرّب منها ذلك الفراغ الكبير. .

دون جدوى. .

نظرت الى جسدها. بدأت منه كي تستعيده. . وجدته خالياً كثوبٍ خالٍ، وبعيداً، ومتراكماً، وثقيلاً. .

يا إلهي. . ماذا أصابني قالت سهى. . ابتسمت ونفضت شعرها الى الوراء. . وعن سابق تصميم واصرار نظرت باتجاه الشرفة إياها. وجدتها مطفأة. . وخالية من. . .

تنفست سهى الصعداء. حملت تنكة البيرة الى الداخل. دلقت ما بقي فيها في المجلى وألقتها في كيس الزبالة فأخطأته. تركتها. . توجهت الى الصالون. . قلبت شريط الكاسيت. .

«عايزة أعرف. . لا تكون غضبان
أو شاغل قلبك انسان. .
عايزة أعرف. .
أنا. . أنا عايزة أعرف
يا ريت يا ريت
عايزة أعرف. . »

دخلت سهى غرفتها. . وقفت أمام المرآة في الحمّام الخاص بالغرفة. . ابتسمت بتصنّع. مرّت بأصابعها الطريئة الباردة على جيب ما تحت العين. أخذت فوطتها الزهرية ورفعت بها شعرها الى الخلف. تعبت. توقفت قليلاً. فتلت غطاء الأنبوب الذهبي. دلقت بضع نقاط في باطن يدها وبضربات لطيفة متسارعة من أصابعها النحيلة أخذت ترطب محجريها. أحكمت اغلاق الأنبوب. فتحت حنجوراً أبيض أخذت منه كريماً أبيض دلّكت به بشرة وجهها ورقبتها جيداً. مسحت يديها بمحرمة من ورق. حلّت برغي القرط الأول وسحبته من أذنها. حلّت برغي القرط الثاني بصعوبة. . رمت بالقرطين على اللوح الرخامي. أطفأت النور خرجت من الحمام. فتحت الخزانة وجلست على السرير. ثم استلقت على السرير. أغلقت الخزانة بهدوء. أطفأت نور الغرفة ثم خرجت.

بدت الشقة فجأة شديدة الاتساع. أطفأت أنوار الصالون واستلقت على الكنبة الكبيرة. . أغمضت عينيها. فتحتهما ونظرت الى ساعة يدها. رمت الساعة على الطاولة الرخامية الصغيرة. أغمضت عينيها من جديد. رأت ساقين مضيئتين. قامت الى النافذة التي وراءها. رفعت الستار قليلاً ونظرت الى الشرفات

الخـالية. ثم نـظرت الى شرفـة الـطابق السـادس. . رأت بصيصاً تـوهج للحـظة ثم خفت. سيجارة. سـارعت الى المنفضة وأطفـأت سيجـارتها حتى لا تبـان من وراء الستائـر الشفافـة. . . عـادت الى النافذة. ضوء الشرفة مطفأ لكن الضوء الخلفي يرسم هـالة جسـده بوضوح. . رأته. . تقريباً. .

يا إلهي كم هو جميل. .

وكان قلب سهى يروح ويجيء كذبابة مجنونة.

في اليوم التالي ورغم أن الشرفـة بقيت خاليـة تمامـاً تحت شمس شائكة إلا أنها فعلت بسهى ما تفعله عيون الضبع بالسائر ليلاً. .

الضبع يعرف أنك وحيد وخائف وأنك في الليل. يظل يسير الى جانبك. يعرف أنك تعـرف أنه بعيـد وأن عينيه همـا الضوء الـوحيد في هذه العتمة الدامسة لا يقترب ولا يصدر اشارة.

فقط هناك. يملأ المكان الذي يحاذيك. تقف يقف. تسير يسير. تخـاف ينتظر. تـدور حول نفسـك. ينتظر. يعلم أن عينيـه قنديلك الوحيد وإذاً لا بد أن تنظر فيهما وإذاً «سيضبعك»، فتسحبـك عيناه التي حينهـا لن تستـطيـع الفكـاك منهـما، إليـه. الى مـوتـك. الى انسحاقك المحتوم في الاشعاع المسموم.

تعرف سهى الأسطورة من أصول ريفية بعيدة وتعرف أن مـا من أحد استطاع الافلات من ليل الضبع سوى راوي الرواية. .

الراوي. . زمن مضى. قالت سهى.

هل شرفتي مفلوشة فعلاً تحت شمس النهار؟. .

في ذلك اليوم التالي كانت حركة سهى في شقتهـا مضطربـة وغير

منتظمة مطلقاً . . بكلمة أوضح غير مجدية بالمرّة.

كانت قدماها ترسم خطوطاً ودوائر ومثلثات لو أردنا رسم خطوطها لوجدناها تشبه خربشة مجنون حانق. لكننا لو أمعنا النظر قليلاً للاحظنا أن هذه الخطوط تمرّ جميعها في نقطة واحدة تنزع نحو جنوبي الشقة أي نحو الشرفة، لكن دون أن تصل إليها. وكأن مادة معدنية جديدة دخلت تركيبة جسدها. معدن دائم الانشداد الى مغناطيس الشرفة، الى قطب قلب سهى.

من الصعب على سهى أن تتقبّل ذلك. لذا اتجهت الى انشغالات كانت منذ يومين فقط تعتقد أن ما وصلت اليه من اكتفاء وسعادة تستحيل معه العودة الى تلك التعاسات الصغيرة: قرأت الجريدة. سمعت الأخبار في الراديو. زارت جارتها الدائمة التشكي من سوء حالتها الصحيّة. اتصلت بخالتها البعيدة و. . .

عند العصر خرجت الى الشرفة. .

رأته واقفاً مستنداً الى الدرابزين. التفت ونظر إليها. . خجلت خجلاً مرّاً، وأحست بالتورّط الكبير. ابتعدت بعينيها الى الشارع. عادت بهما مجدداً إليه. كان ما يزال ينظر. لا. كان يحدّق. إنه يشبه آلهة الإغريق الفتيان. . وكادت تبتسم. خمس وعشرون سنة؟ لا. . أقل. ارتفعت بنظرها الى أفق انتينات التلفزيونات التي تغطّي سطوح البنايات المقابلة وحاولت أن تتذكر ماذا ترتدي. . وكيف تراها تبدو من شرفته. . لعلّها من بعيد تبدو أصغر سناً. .

لم تتحمل سهى درجة ارتباكها فتركت الشرفة. . دخلت شقتها وهي في حال من الذهول جعلها ترفع كفّها الى جبينها وتتمتم: يا

إلهي ماذا يجري؟! لم تجد سوى اجابة صغيرة واحدة جعلتها ترتمي منهكة على الكنبة: أنا امرأة تعيسة..

اللعنة!

نعم.. اللعنة! تكبس على الزر الأسود الصغير، لعلّ صوتاً قوياً نافذاً عجائبياً واحداً ينفذ الى أذنيها ويريحها من هذا التشويش الكوني الفظيع..

«أتقلب.. عل جمر النار.. النار.. النار...
وأتشرد. ويّا الأفكار.. أأأأأر...
النسمة.. أحسبها..
على كده...
على كده...
وشافوني.. قالوا جنّيت..
على كده..
يا ريت يا ريت يا ......»
عبثاً تحاول

موجة صوتية واحدة تملأ رأسها. فقط ضجيج هشّ. ذبذبات صارعة تلغي كل ما عداها. تكلّس ملكة السمع عن الخارج، وتطيح بكل تركيز.. تمدّ بشوبك قاس عجينة الحيرة على اتساع السماء..

ما من مكان هو المكان.. ما من صوت هو الصوت..

ما من أنا سوى هذه البعثرة الهائلة وتلك الحاجة المريضة الدائمة الى التنفّس بعمق..

تباً...

باختصار شديد، لم يعد ذلك يليق بي، قالت سهى بعد ليلة بيضاء وهادئة كجثة. إن ما يحزّ في نفس سهى هو، على الأرجح، خيانتها لنفسها. . ماذا استفادت من كل هذا العمر الحمار. . إذ هي حتى الآن ما زالت عرضة للمفاجأة والارتباك والزلزال العنيف، إن كان أمر تافه كهذا. .

أمر تافه؟

تمتمت سهى. . وهذه الكيلومترات الفظيعة من الشرايين يقطعها دمها من القلب وإليه بخفة فراشة غرّيرة. . وانعدام الجاذبية الذي يجعلها تمشي وتدور دونما حاجة الى ساقيها لتعود بعد لحظة وتقع في الثقل والوزن والالتصاق، والى الاحساس بأن اصبع يدها الصغير مربوط الى صخرة على عمق كبير من سطح البحر. . وأن شجاعة هائلة تلزمها لأن تنزع منه الخاتم لتلقيه بيأس على الطاولة الصغيرة. .

كيف يمر هذا العمر بعذاباته ودروسه المضنية ولا يعلّم سهى ما اعتقدت أنها حفظته عن ظهر قلب، ما اعتقدت أنها شربته حتى الثمالة، ما اعتقدت أنها ضبطت نفسها على أيقاعه: ما من قوة تعيدها الى الاختناق، ما من احتمال يجعل رجلاً يردها الى عذابات تعرف طعمها جيداً. . كل ذلك لم يكن وهماً صرفاً. . صار في أحشائها ما يشبه الضوء الأحمر وقد أضاء فعلاً مراتٍ عديدة. . فاستجابت بأقل قدر من الخسائر. . أعنف حالة غرام خرجت منها بعد أيام قليلة كالشعرة من العجين. وانتهى كل شيء. ونسيت. وتغيّرت. وفرحت. واستردت طزاجتها، لمجرد أن أضاء الضوء الأحمر معلناً: هنا عذاب. . توقف!؟.

اللعنة!

هل هو طالب جامعي، يظهر ذلك من لباسه ذي الطابع الرياضي.. من قميصه الأبيض القطني الفضفاض ذي الرسوم، وشعره غير المسرح. تلك الأناقة اللامبالية، الجمال. الصدفة. الأرجح أنه من متخرجي جامعات أوروبا.. لا أميركا. يال.. أو كاليفورنيا.. كيف تراها تكون فتاته، لا.. ليس النوع.. لا بد أن يخرج مع عشر.. وعشرات تنتظرن دائرات حوله كدوائر زحل..

زحل.. يا كوكب المآسي..

حسناً.. هي تبالغ كي تجد لنفسها مكاناً في زحمة ما. تندس في مجموعة ليبدو الأمر أكثر احتمالاً. عليّ وعلى غيري. لو تتعرف إليهن ربما وجدت الأمر مسلياً.. طريفاً. كل شيء أقل وطأة حين تكون مع آخرين في مثل حالك.. دفء الكثرة..

آخرين في مثل وضعك.. أنتِ حقاً تمزحين..

فتيات أكثرهن تحت العشرين.. وبالتأكيد يتكلمن بلغة شيفرة لا تستطيع هي أن تخبط فيها خبطة واحدة.. مدّعيات ومغرورات.. يلعبن بذكائهن ليطنّ كطابة الفليبر ويسجل أرقاماً.. طموحات، يؤكدن باصرار عنيف ما يجهلنه تماماً وهن يتنططن بجينزاتهن البائرة.. وقاسيات.

تركت سهى طرف الستارة ومشت بخطى ثقيلة الى المطبخ.. وكأن أفكارها معلقة بكاحليها. أحكمت اغلاق قنينة الغاز الفارغة.. ووقفت تنظر شاردةً باتجاه البراد.

دخلت غرفتها. جلست على حافة السرير. حملت رأسها بين يديها. سأخرج.

فتحت الخزانة وأخذت تلامس الثياب المتدلية من المشاجب. . لن يتحمّل جلدي اليوم سوى الحرير.

أخرجت تايورها النيلي. . النيلي لأنه لون ضد الخريف.

ألقته على السرير. الحذاء الأبيض. الحقيبة البيضاء. الأقراط الفضية. تناولت سيكارة عن المنضدة وأشعلتها. دخلت حمام الغرفة. أحنت رأسها وأخذت تضرب شعرها بالفرشاة من الوراء الى الأمام. . نظرت لحظة في المرآة. لا. . لا ماكياج. فقط القليل من الأحمر على أعلى الوجنتين. . وعلى الشفتين. . فقط القليل من العطر على المعصمين.

رن. . . رن. . .

رفعت سحّاب التنورة ونظرت في المرآة الى انسدالها.

رفعت انشوطة الحذاء الى ما فوق الكعب وضربت رجلها في الأرض ضربة خفيفة.

رن. . رن. . .

رفعت الحقيبة عن السرير واجتازت الممشى وهي تستحسن رنّة كعب الحذاء على الرخام الأبيض.

ألقت الحقيبة البيضاء على كرسي المدخل. نظرت من العين الزجاجية في الباب. . رأت قميصاً قطنياً أبيض فضفاضاً. . رجعت خطوة الى الوراء. . العين من الحواس الخادعة.

فتحت الباب

رأته.. إنه هو. بأكمله. واقفاً قبالتها. يبتسم:

إنه..

ينحني على شيء معدني كبير ومدوّر.. وفي يده ما يشبه الفأس الصغيرة. يحمل الشيء المعدني الكبير المدوّر الذي يبدو الآن ثقيلاً. ويطلب إليها بلطف أن تتنحّى.. تفعل. يدخل.. يبقى رأسها فارغاً تماماً وعيناها في فراغ المدخل..

تلحق به الى المطبخ..

- أنت..

- نعم.. أنا الشغّيل الجديد عند فؤاد.. تهجّرنا حديثاً الى الحيّ.. أفضل من أن يبقى الواحد بلا عمل.. أين أضعها؟

فرقعت سهى بضحكة تشبه شمس هذا النهار الوقحة.

تناولت الحقيبة البيضاء عن كرسي المدخل وصرخت لخادمتها السيريلانكية الكسولة..

- «إيمادي».. أعطه ثمن قنينة الغاز..

وصفقت الباب وراءها..

سلام

رفعت سلام أنفها قليلاً فوق اللحاف علّ الهواء الأقل دفئاً يبعث فيها القليل من النشاط.. جالت بعينها الحرّة في فضاء الغرفة وحاولت تخمين الوقت متهمة نفسها بالتأخر..

هراء.

لا المنطقة الملاصقة للمخدة ولا تلك المغمورة باللحاف تستطيعان الاستجابة. كأن صار صعباً على سلام.. يوماً بعد يوم.. أن تستعيد سيطرتها على أجزاء آخذة بالابتعاد من جسدها.. الى جهة مجهولة.

وسلام امرأة عاقلة وقنوع وقد عاشت بسلام ونبات مع جسدها، المتضامن حتى في أقسى الظروف، فلم يحمل لها طيلة عمرهما الطويل سوى المفاجآت السّارة إجمالاً.. حين كان يدعوها الأمر لربطه عند عتبة ما كانت تعود لتجده مكانه منتظراً في سكينة مباركة، يحمحم عند اقترابها منه كالفرس الأصيل فتمتطيه ويعودان سويةً...

كان دائماً عند حسن ظنها به.. تخلعه حين تتعب وتستلقي، فيقف عند حافة السرير، يذر برداً وسلاماً على نومها الهانىء، وحين تستفيق تتقدم إليه بكوب الشاي الحار، فينتعش ويربط في

سعادة غامرة قبل أن تتأبط ذراعه وتخرج مزهوة به الى السهرة...

لا تستطيع سلام، حين تعود بالذاكرة، الا أن تفي جسدها حقه.. فقد كانا رمزاً للتناغم والانسجام.. ولا مرّة سبقها الى رغبة بلآفة تستفيق بعدها في روضة الندم الملعونة ذلك أنها كانت تصغي إليه على أساس من الصراحة كانت دائماً دليلهما الموثوق منذ تم التعارف في بداية الرحلة. كان أحياناً يحرن.. تستفهم بصبر وطول أناة. تحاول. سوف يتهمونني بالتخلف والعقد.. إمشِ معي فأنت تتنكر لرغباتك الدفينة. تفتعل المشاكل.. ثم كانا يتفاهمان..

لم تكن ترغمه.. لم تكن ترهقه بقناعات عقلها..

كانت أحياناً فورات من الغضب أو الجذل أو الثبات. كان يكفي أن تلكزه خفيفاً حتى يستجيب، بل ويكاد يعتذر فتعود الأمور الى مجراها الطبيعي، وتنتظم بشكل مدهش بعيداً عن المفاجآت خاصة بعد أن ولّت المراهقة الى غير رجعة. فهي منذ ذاك تحيض بدقة الساعة السويسرية وتدخل مع القمر في مداريهما المتناغمين حالما ترى تلك البثرة الصغيرة، «الفسفوسة القمرية» كما كانت تدعوها، مدفوعة بذبذبة داخلية سرية الى سطح الوجه. حتى أنها، ولا مبالغة في ذلك، تكاد تسمع إيقاع بويضتها الشهرية وهي تتأرجح قليلاً قبل أن تكرج في ممراتها المعتمة وتستقر في حفرتها الصغيرة الدافئة الحمراء. تنتظر لقاحها، ثم ذبولها المستوحش...

فسلام حملت بأولادها الثلاثة، تماماً حين أرادت أن تحمل بهم، ووضعت تماماً في اليوم الذي هيأت فيه نفسها لذلك وحسب توقعاتها الحسابية. تهجس بالزكام القادم قبل وصوله بأربعٍ

وعشرين ساعة على الأقل، عندما تبترد أطرافها، وينتابها كدر مفاجىء.

تعرف، بحاسة الشمّ، ما لا يمكن أن تهضمه معدتها بسهولة.

إجمالاً، كانت تستلم ما يشبه الرسائل السرية، تكون بمثابة إنذارات صادقة من عميلها المخلص.

الحق يقال إن هذا الإنسجام، وهذا التناغم العظيمين لم يكونا ليتوقفا عند المساحة الضئيلة التي كانت سلام وجسدها يشغلانها في هذا العالم، بل إنه كان قد بدأ محاكاة ما حوله، متحولاً الى جزء من كل في نظام كبير وعظيم وسرّي، ما جرؤت سلام على البوح به لأحد. بل إنها كانت تعتقد أن إفشاء السر لا بد أن يفسد كمال هذا النظام فتكون مهددة بالتالي بلفظها منه وانقطاعها عنه وارتدادها الى حال الجزء الجاهل.

ثم أصبحت سلام تعتاد هذه القربى. فتطوّل حبل الصرّة بينها وبين جسدها. تترك له حرية أن يسبح في هذا الفضاء المغنط بكمال حركته، هذا الفضاء الشاسع القدسي، فتعبر على جسره في رحلات كلما ازدادت بعداً ازداد جسدها حميميّة وألغازاً وازدادت هي سعادة في حلّ هذه الألغاز، لنقل إنها ازدادت سعادة ووحدة.

ثم إنه صار عندها ما يشبه نظام الشيفرة. فعندما تستيقظ بورم خفيف تحت عينيها كانت تعرف أنهما تتحضران لبكاء آتٍ فترخي لهذا البكاء حبال صدرها. وعندما تحس آلاماً صغيرة في الظهر فإن أحد أولادها سيتعرض لوعكة ما وعليها إذاً أن تتحسس أسلحتها كحارس قديم. أما طنين أذنيها فكان نذيراً برؤية محبين غائبين تنجّد لهم قطن القلْب. . حين تحكّها يدها فالبرد سيشتد ويزداد هطول الأمطار. وحين تكثُر حركتها في البيت فهي على وشك سفر

أو مشوار طويل.. مرة واحدة حاضت قبل الأوان، فضربت المدينة هزّةٌ خفيفة.

كان هذا الجسد الحبيب يخترع أحلامه القليلة ويسترجع ذكرياتـه السحيقة دونما ضجة أو تشكٍّ كلما اشتاقت سلام لهناء الحلم أو لذة التذكر.

تلك هي إجمالاً سيرة سلام مع جسدها.. سيرة هادئة ومتواضعة وليست في أكثرها من الغرابة أو التفـرد بشيء إذ إن البشر يتشابهـون كثـيراً وإلا لما زُوِّدنـا بفم وبـأذنـين لنتبـادل السـماع والكـلام مــع الآخرين.

لكن في الفترة الأخيرة اختلطت الأمور على سلام. لم يحصل هذا فجأة. يومـاً بعد يـوم.. شيئاً فشيئـاً كما الميـاه من تحت التبن أخذ جسدها بالاختلاف. الاختلاف والثقل.. صـار يتلكأ. صـار يتغيّر يتفرّد بأمور صغيرة وغير ذات شأن. أصبح كسولاً وصـار يخربط في نظام إشاراته.. انتاب سلام حزن وقلق عميقان بشأنه لكنها قـالت لا بد أنه العمر فلأزد من اهتمامي به لكنـه لم يكن ليستجيب وصار يحرن كبغل.

تقرأ أحياناً فلا تفهم.. ترعاها يدهـا فلا تمـطر.. يؤلمها ظهـرها فلا يمرض أحد أولادها.. ثم ازدادت المسألة تعقيـداً حين صـارت تحس اضطراباً قوياً في تنفسها.. يصيبها وهن فظيع عند كل شهيق كـأنها إنمـا تفكـك ذرّات الهـواء لتـأخـذ نصيبهـا من الأوكسجـين الحيوي. قالت لعلّه هواء المدينة المثقل بدخان البارود وغبار الأبنيـة المتراطمة بالشوارع وزبالة الناس وحرائق الأثاث والبيوت. ولم يكن ذلك مقنعاً.

ثم أخذ الجسد بالنكران. . يغرق في كسلٍ غريب، يبدو كأنه يغادر إرادتها. تستفيق فلا تستطيع النهوض من سريرها. تنظر الى ساقيها وتأمرهما بالنزول فتبتردان وتبتعدان ثم تأخذان بما يشبه الدوران في فلك منفصل. قالت. لعلّ ما أصابني من رعب في السنوات الماضية. . لعلّه لا يجد سبباً يدفعه الى الحركة في هذا الفراغ الهائل. . ولم يكن ذلك مقنعاً.

دخل جسد سلام في رأسها كالوسواس وصارت تطيل النظر إليه. تتفحصه وكأنها تتعرّف إليه من جديد. إنه يتحول. يزداد اختلافاً. أجزاء منه تشبه أحياناً خضاراً أو فاكهةً، أجزاء تشبه بعض الحيوانات. أجزاء تشبه ألعاباً مكسورة. يا للكارثة قالت سلام. جسدي لم يعد واحداً. ثم إنه ينساني. يعشق أشياء غيري. . يخونني باستمرار. . ويتبعثر. .

أحياناً يُخطر برغبة ثمّ يتركني في وسط الطريق. . يدخلني بوابة ثم يغلقها ورائي ويبقى خارجاً. يرتبك ويضطرب ويتصدّع لأتفه الأمور. لكنه يندم. يعود إلي. يتركني من جديد. لأتفه الأمور. . لعله مسكون بجراثيم الموت الساكنة المضمرة. يفسد كجثث الجرائد. . يتسمم ولا يستطيع تقيؤ الصور الفاضحة التي علقت بأشباهه فكشفته. كشفته فبدا كبقرة سوداء مقرورة في سهل من الثلج. كشفته كما تكشف طنجرة حليب يروب لم يتحول بعد الى لبن، فأفسدته. .

ولم يكن ذلك مقنعاً. .

. . . وذات صباح فيما كانت سلام تخلع ثيابها استعداداً لدخول الحمّام، فاجأتها رائحة غريبة، بدت مزيجاً من روائح عدة متباعدة

المصادر. . رائحة، تشبه رائحة الفراشات الليلية الميتة التي كانت تجمعها حين كانت طفلة. كانت تستيقظ باكراً، قبل أبويها، وتتسلل من سريرها إلى أرض الدار الذي كان يبدو شديد السكون تحت فضائه الغبشي الأزرق المعتكر بأنفاس النوم الليلي. وفي هذا الموات المطلق كانت سلام تتحرك بحذرٍ ورهبة إذ كان البيت في تلك اللحظة مشاعاً لكائنات غريبة جليلة تشعر الطفلة بأنها تعبر حييّةً في هذا المكان الخالد. وهذا المكان الذي، يتهيأ للطفلة المشعثة الضفائر، إنما سيعبره فيما بعد أطفال كثيرون غيرها، كانت تكاد ترى وجوههم اللاهية التي تشبه وجهها. لكنهم مع ذلك أطفال سيمضون ليبقى هذا المكان ملكاً لنفسه.

كانت سلام تمكث دون حراك حتى تعيد الشمس تأهيل أرض الدار، فتقوم الى بحثها المعتاد عن مخلفات الليل ذات الزغب الغباري. تنتظر حتى يستكين خفق الأجنحة المختلجة وتقوم الى العلبة التنكية المزدانة برسوم البسكويت الأصفر، تجمع فيها فتات مائدة الليل.

حين كانت تفتح العلبة في المساء كانت الرائحة الدافئة النفّاذة تنبعث منها في فضاء المكان فيعلو صوت الأم وتنزلق الفراشات الميتة في ليل النفايات.

تلك هي الرائحة التي أخذت بالانبعاث ذاك الصباح من جسد سلام. لكنها، وهي تتشمم طيات جسدها كالكلبة المهتاجة لم تستطع تحديد مصدر تلك الرائحة. .

انتاب سلام قلق شديد. جلست تعبة على مقعد الحمّام وفكّرت وهي تبول. . لعلّها ذاكرة الرائحة لا الرائحة. . لعلّي ما زلت

أبحث في كـل ما يهـدأ حولي عن اختـلاج يستكين. لعـل جسـدي يأخذ الآن شكل علبة البسكويت.. لعلّه ليل النفايات...

ولم يكن ذلك مقنعاً..

لم يكن ذلك مقنعاً البتّة..

عند اضطراب طمثها الأخير خرج من ثديي سلام ما يشبـه نسغ الشجـر.. ارتعدت فـرائصها. قـالت ما بي شيء غـريب. فقط أنا خائفة مما أجهله عن نفسي..

فلأذهب الى الطبيب...

٧ ـ ٦ ـ ٣ ـ ٨ ـ صفر... طن. طن. طن..

إنه يجرّني الآن الى مناطق مجنونة.. وأنا أنصـاع له كعبـد. بوعي العبد وحقده وخبثه الذي لا يملك سواه. تغمرني سعادة فاسقة وأنا أرتع في هذا الخفاء اللذيذ..

٦ ـ ٣ ـ ٨ ـ صفر.. طن. طن. طن.

ارتجف برداً وتآمراً.. وتأكل قلبي نار مشبوبة شريرة ساحرة ولا يعلق الخط..

أعاند ولا أستسلم.. ازداد شوقاً الى يده الباردة تلامس جسدي الخربان فتزيده خراباً وجهلاً وتفكّكاً ودهشة..

وازداد تصميماً على تصميم جسدي العنيد المخبول..

شيء يشبه الصرع بنوباته الإبليسية حين أثـابر عـلى طلب النمرة القـابعة في مـوتها. ازداد تشنجـاً وأكـاد أبكي في مـراهقـة متـأخـرة وسريعة العطب.

أريد أن أكلمه.. أريد أن أراه وأن يلمسني ثانية..

٣ ـ ٨ ـ صفر. . طن. طن.

تفو. .

إلى متى أستطيع أن أنعم بهذا الخفاء لأطلبه مجدداً وكيف أمضي بقية عمري. . ما الذي يُرضي جسدي المقطوع عني الآن، إذا أخفقت. كيف أفسّر له فشلي. كيف أستسمحه. كيف أردّه إذا غادر وأنا أعرف أنه لن يعود ولن يشفق ولن يلتفت وراءه.

٨ ـ صفر. توت. :. تووووت. . .

أترك السماعة من يدي وكأنها لسعتني. . أنظر إليها. مستحيل. ماذا كان يفعل هذا الشيء الأسود الكريه في يدي. توت. تووووت يا إلهي يكاد يجيب. . يا إلهي كدت أكلمه.

تضع سلام يدها على عينيها الملتهبتين. تلمس رطوبة. تكاد تبكي. تعيد السماعة بالعجل إلى مكانها.

ترفع سلام السّماعة من جديد. كأنها تبتسم لوحدها. تنظر الى جسدها وكأنها تربت عليه. إذعان وشفقة.

تقول سلام بصوت مرتفع. سوف أكلم الطبيب. لأنه مفتون بي. . ولأنني أكاد أجن لأراه في غرفته الصغيرة المعقّمة ذات الهواء الطازج الخفيف النظيف الدافىء. .

تأخذ سلام السّماعة. . تووووت. . .

تدير القرص: ٧ ـ ٦ ـ ٣ ـ ٨. صفر. . توت. . . . . توت. . . تمسك السّماعة بيديها الاثنتين. .

ـ«لا. لا. . لا شيء. . فقط. . مع السلامة».

تقول سلام ثم تعيد السّماعة بهدوء إلى مكانها.

تعب المصاب بالصرع بعد النوبة مباشرة.

تعب المصاب بالصرع بعد النوبة التي سوف، الى الأبد، يليها العدد الكبير الطويل المتكرر المنتظم. كطريق ضيّق يغيب بين جدارين صغيرين. الى الأفق. الى أفق أرض مسطحة.

إذ، هل يخطر لأحد أن سلام، إنما كانت طيلة هذا الوقت. تطلب رقم هاتف زوجها في عمله؟

قفزت سميرة من السرفيس وركضت الى مدخل أول بناية في الشارع لتحتمي من زخّات المطر القوي. اصطدمت بالبوابة الحديدية المقفلة إلا أنها استطاعت، في المساحة المتبقية بين البوابة والشارع، أن تتّخذ لنفسها مكاناً. لكنها سرعان ما غادرته إذ إن الرياح كانت تضرب الأمطار في كل اتجاه وسميرة قد تأخّرت. السيدة ستزعق من جديد. ستقول لها سميرة: «الصغيرة ليست على ما يرام». «سلامتها». ستجيب السيدة.

كانت تهمّ بمناداة الناطور ليفتح لها البوابة إلا أن رجلاً، فوجئت بوجوده قربها كان يدير المفتاح في القفل... نظر إليها. دخلت وراءه. أقفل البوابة من الداخل واتجه الى المصعد. ضغط على الزر ووقف ينتظر. وقفت تنتظر بجانبه ثم صارت تمسح بأصابعها وريقات النبتة الخضراء الموضوعة على يسار باب المصعد.

انتبهت سميرة أنها تقطر ماءً. ابتعدت قليلاً عن السيّد الأنيق. نظر إليها بتفحص سريع. أخفت يديها المسبلتين في ثنيات تنورتها الفضفاضة وأطرقت. يداها القبيحتان كيدي قزم كبير.

خرج الناطور من غرفته الملاصقة لبيت المصعد. استدار السيد نحوه وقال أشياء غامضة فهزّ الناطور رأسه وقال: «حاضر». بقي

السيد ينظر إليه وكأنه ينتظر تتمة الكلام. وسميرة تنظر الى السيّد.

كأن سميرة خافت قليلاً. كم هو جميل يا إلهي.. وكم هو نظيف وأنيق..

عاد يتكلم مع الناطور. له فم كبير وأحمر يتحرك بسرعة. صوته مختلف وواطىء.

عاد السيد الى المصعد. نظر الى فوق. نظرت سميرة الى فوق.. في اللوحة المضيئة سهم يشير الى فوق.. نظر السيد الى سميرة بما يشبه التأنيب. بردت سميرة إذ في المدخل تيار هواء قوي.

ضغط السيّد من جديد على الزر.. ثم استدار متبرماً نحو الشارع ووضع يديه في جيبي السترة السميكة الداكنة.

هذه المرة ستنتبه. وصل المصعد. بدأت سميرة تشدّ مسكة الباب قبل أن تستقر غرفة المصعد في مكانها. انتبه السيد للقرقعة الصادرة عن باب المصعد فاقترب. فتحت سميرة الباب وتنحّت. دخل السيد. ودخلت وراءه.

ضغط السيد على الزر السادس والتفت الى سميرة...

اشتعلت وجنتا سميرة ثم أسرعت بعدّ الأزرار حتى وصلت الى التاسع وضغطت عليه. تحركت غرفة المصعد.

امتلأ المكان بعطره وبرائحة المطر الذي يكاد يتبخّر على جسدها الحرّان. أطرقت سميرة ثم نظرت اليه من طرف عينها. نظرت اليه في المرآة المثبتة قبالة الباب. نظرت الى جانب وجهه. أنفه دقيق وفمه شديد الاحمرار.

العطر القوي يجعل سميرة تشعر بما يشبه الدوار الخفيف. إنها

ولا بد تشغل حيزاً كبيراً في مساحة صغيرة أكثر مما يجب. التصقت بالزاوية. وضعت يدها على الحافة المعدنية ثم أنزلتها بسرعة..

الزر الرابع ينطفىء. يتنهد السيد بقوة ويملأ المكان بنَفَسه.. تقتصد سميرة في كمية الهواء خاصتها.

يبدو الطابق التاسع كقمة حادة لجبل بعيد.

تنظر سميرة الى حذائه الناشف. كأنه لم يكن في الشارع. تفكّر. تنظر سميرة المطرقة... حذاءها البرتقالي الثقيل، كأنه ملتصق بالأرض.. فات الأوان.

يفتح السيد باب المصعد ويخرج. ينظر إليها.. كأنه يبتسم. يغلق السيد باب المصعد بتؤدة ويختفي ظلّه وراء زجاج الباب السميك. تغمض سميرة جفنيها على حريق خفيف.

تفتحها. تمر بيدها على الزر السابع دون أن تعيد عد الأزرار. تتنفس عميقاً. ينطفىء الزر التاسع تتوقف غرفة المصعد..

تدفع سميرة الباب بقوة. وتخرج.

III ـ عاشقات

مريم المجدلية

فيدرا

شجرة الدر

بنيلوبا

كنت على شرفتي الصيفيّة أغدق على النهار نعمة الالتفاف حول جسد مريم البهي. وكانت أشعة الشمس حين تصل إلى جلدي المضيء وتكسر دفئها في عطره الكهربائي ترتد الى ما هو أقل استحالة منه: الى الورد والنحل وزهر البستان.. كانت الوصيفات تلتففن حولي كالقطط المستكينة ولم يكن التماع عيونهن الحاسدة من وقت لآخر ليبدد أبخرة جسدي المنسربة الى خياشيم العناصر..

كان شعري المشتغل بطيب عبداتي الذوٌبات كالعناكب يتمدد الى جانبي متطهراً في الشمس من لعاب الرجال الليلي، ممتداً إلى قدميّ الصغيرتين المسوّرتين بخلاخل دموعهم الراجفة، الملونتين بحنّة دمهم المفتوح...

- مريم.. إني أريد ماءً..

لم يدخل الصوت من أذني بل من أسفل رأسي.. الليل فقط لهم.. من هذا الآمر الآتي الى نهار مريم؟!

حين نظرت إليه للمرة الأولى ورأيته واقفاً أمامي في الضوء مستقيماً مشدوداً وعالياً..، أحسست برغبة داوود الى جبهة جوليات ولكنني لم أعرف بأي مقلاع.. بأي حجر.

لن تعرف بطون النساء نطفةً كالتي اشتعلت مريم... من هذا

الآمر بالماء. . ارتفعتُ على أريكتي حتى أراه جيداً و. . . رأيته. . أقصد أني حينها رأيت عينيه. آه يا أم مريم. . لقد ارتعدت فرائصي لا فرقاً ولكن دهشةً، عطشاً. . واحساساً بالغدر والعري. .

كان يا أمي جميلاً. . آتياً من مكان وراء الذكورة. . وجسده من وراء الجسد. . وكان فمه كوردة نار تخبط في أحشائي، ويده النائمة على حجر الشرفة تنعي موت قلبي كغراب عسليّ. .

ـ ليشربْ يا «سويدة» هذا الرجل. . وينصرف. . .

حين لامست يده طاسة الماء التي لامست يد «سويدة» انتبهت لبشاعة هذه العبدة وصممت أن أرسلها في الحال الى أمها الفاسقة. . لكن. . وقطرات الماءتنزلق عن شفتيه ثم عن شعر لحيته المغبّرة الى صدره المكشوف. . . رباه. . . كان خدرٌ خفيف يترقرق من أصابع قدمي الى مسماري صدري كمياه ناريّة تغرزها براكين شديدة الصغر وحين أدار كتفيه هويت في خط الظهر المحفور تماماً بين الكتفين وصرت أهوي في ذاك الأخدود الذي بلا قاع حتى رفع يده. . ثم أدار إليّ وجهه وابتسم فمه من فوق كتفه وقال وهو يدحرج أشعة عينيه الى وجهي:

ـ مياهك عذبة يا مريم. . وسوف أعود.

مياهي؟! وكان جسدي قد صار فحمة شاحبة وفرّت المياه والرطوبة منه تاركةً مساحات فارغة من رائحة تشبه شوك القندول في الحلق.

سوف يعود؟!. . كيف ذلك وأنا موقنة أنه لن يخرج. .

يا أم مريم . .

أغق النهار بابه بالمزلاج . . وحشاني تبن الكآبة وحملت شعري على يديّ أهدهده طيلة الليل . . قلبت المرآة وأرسلت العنان لوساوس جوعي أقتات آهاته حبّة حبّة . . أصابني ذهول وعياء . . وكان دمي يراوح مكانه وينقلب كحيّة تأكل ذنبها . . وكان ذلك شهياً . .

قعدت إلى نافذتي وتابعت انسراح قمر السماء المطفأ الى مرتفعات الليل البهيم حيث إناث الذئاب تركن الى دفء فراء الذكور . .

روحي حزينة حتى الموت . . ودبيب حشرات غريبة يجري بطيئاً كالسمّ الى قارورة جسدي المندلق . . وها أنذا أشذب شعري المتكوّر فوق ركبتي كالأفعى الفاقدة أسنانها . . . ، هادىء وشاحب وينفث الشكوى كالصفصاف فوق بحيرة ريقي الناشفة . . وها شعري يخرج مني كالزبل من إست البقرة ، مرسلاً عنيناً خافتاً ، وينزلق عن المشط كالديدان الميتة . .

- إفتحن الأبواب وأضئن الشموع . . ولأسمع حفيف الركب على بلاط سريري . . هاتي يا وصيفتي حليّ مريم التي لن ترتعش في رحم امرأة نطفةٌ كالتي اشتعلت مريمَ . . لتضيء هواجس الفحولة في هذه المدينة المباركة ولتطلق الرئات المتخثرة بحبر الناموس رصاص آهاتها وتنتهك حجاب الليل . . .

لكن آه . . دمعي غزير يا «سويدة» يا أُخيّة . . دمعي غزير ودبق بالماء الناري كنبع طبريا حيث تغتسل الآن قدماه بعيداً عن ماء فمي . . فمي الملتوي بالبكاء كفتق ذاك السومري اللعين . .

ـ أعطني «سويدة» رغيف يدي إنني راحلة. . «سويدة» مريم سترى من أمر ذلك الناصري اللئيم الذي لم يغادر ولم يعد كما وعد. . إملأي «سويدة» قارورة الطيب ولتشرب أفاعي شعري مريئاً. . يعوزني هذا الناصري «سويدة» كي أستطيع أن أهرم. . يعوزني هذا الناصري كما يعوز الجسد القليل من الجراثيم كي يستطيع أن يهرم. . . ولا بد لبرج بهائي المائل من أن يقع في صدره كما تقع العناقيد من الدالية بسهم العين الحاسدة. .

* * * *

سيدي. . انظر إليّ

سيدي. . إليّ. .

من ترى ورائي حين ينهض جسد مريم ليسدّ عليك الرؤية؟

سيدي. . .

من أين تأتي بالهواء حين يضرب ستار بشعري المطيّب دائرة الشهيق؟

سيدي. .

كيف لا تشتهي مريم؟

كيف لا تعرف. . لا تلقي بالاً. . لا ترى. . مريم. .؟

سيدي. .

كيف لا تموت جزعاً وعشقاً وموتاً حين تكشف مريم عن نهديها اللذين أشد بهاءً واحتراقاً من نجمة الصبح؟

كيف لا تهوي في هاوية خصرها الذي كأودية لبنان حين تطعجه أمام عينيك الذابلتين النافذتين الخبيثتين هاتين.

سيدي. . .

مريم فتى أشد غواية من يوسف إن كنت تفضّل الغلمان.

سيدي . . .

مريم أطهر عذرية من ثلج لبنان إن كنت عاشق أمّك . .

سيدي . . .

لقد . . أُسقط . . بيدي . .

ـ آه يا «سويدة» . . . آه . . . .

قولي له مريم في الباب وقد سابت جسدها للريح والموت والايمان.

قولي له مريم في الباب وهي أكثر ندماً ووحشةً من لعنة طافية على وجه الماء . .

قدماه . . وليس غير شهوة دموعي . .

قدماه . . وليس غير ألياف شعري . . .

فيدرا

أي كآبة كانت تلف فيدرا كبيت عنكبوت كبير. . تدبق على أطرافها وعلى قلبها وهي تلقي برأسها المتعب على كنبتها البيضاء الطويلة، وترسل بنظراتها العاتبة الى قمر نحاسي مكتمل النضوج يكاد، لتنهيدة، أنْ يقع على سطوح المدينة. . .

إنه الليل يا فيدرا. . يا عاثرة الحظ. . .

الليل أيها الكائن الأرق. .

إنه قبعة الأحلام النيلية وريشتها الراقصة. . إنه رماد الرخام المستريح من خبط الأقدام القوية الهاذية بالحرب. . إنه التعب المنحلّ على اسطبلات التّجار وعلى أضواء المواخير. . .

ألا تستريحين أيتها الملكة؟

ها أنتِ قد خلعت تاجك وزنانيرك وخواتمك. . . وفردتِ شعرك الطويل المدهون بزيت الكهان الصالحين، وفتحتِ الباب لجسدك المربوء، فلماذا لا يستريح حزنك الملكي. . .

ولماذا لا تتركين لهذا الليل الأبوي أن يحمل زفراتك المتدحرجة على صدرك كجمرات قانيات. . .

وفيدرا. . كلما دلف الليل دلفت إليها عينا إيبوليت كجرذان

يقضمان طاعون روحها. . تجلس متعبةً. . تتسرب إليها مشاهد النهار، حين رأته، كحيوانات منتفخة منقلبة على ظهرها، لا تتوقف عن المرور في السيركوس الكبير. . .

وفيدرا. . بعد أن قطعتها العادة الشهرية، وأمّزق طبل الخامسة والأربعين صارت تحس أن الدم الذي لا تنزفه يعود الى قلبها، والى عينيها، وتتراءى لها الشرور كسرير أبيض وثير، وسط حقل واسع، يدعوها للتمدد والراحة. . سرير تعلوه غيمة كثيفة من البيوض المجهرية التي تنتفض بالحياة السرية منتظرةً أن تضع يرقاناتها على جسد فيدرا المتعب. .

إيبوليت. . أي امرأة أنا. . يا ابني المستحيل، يا زوجي المستحيل. . حين تتحرك بين أصدقائك الفتيان في مماشي القصر. . حين يسير جسدك المتجاهل اللاهي في أروقة جسدي الموتور. . . أي عذاب حين لا شيء يقطع بين عيني ورؤيتك. . حين ولدنا على كوكب واحد. . حين ألامس الجسد الذي أخصب بك ولا ألامسك. .

أي عذاب حين لا بد، أحياناً، من أن تنظر إليّ، من أن يصبح وجهي خشبة لمسمار عينيك. . وحين كلماتي إليك رذاذ يهبط ولا يلامس. . أي عذاب في أن تكون ولدت مرةً واحدةً، ولدت وكبرت دون أن تضعك أحشائي. . وفي أن تكون امرأة أخرى هي التي وضعتك وأرضعتك وخلصت من عذاب عشقك. .

كلما دخل الليل، وسور سواده حظيرة الرؤوس المضطجعة في سلامه، اشرأبت كآبة فيدرا الفاسدة وراحت تتآكل تحت ضوء القمر كثمار السوق المهترئة التي فقأتها العربات. .

وفيدرا ساحة فارغة وما من نجمة تهدى لسمائها
وفيدرا نافذة مفتوحة عبثاً لذبذبات غبار قمري مسفوح. .
وفيدرا امرأة راضية بكتم الشكوى
وفيدرا امرأة لا تستطيع، في الليل، كتم الشكوى. .

ماذا فعلتِ يا هيلانة. . أيتها المرأة الفاسقة الحاقدة الخفيفة الرأس. . ماذا أسمي رغبتك الملعونة التي أبدلت نجمتي الى نيزك حارق، ودمي الى تيار من الكبريت. . يا لجنونك هيلانة، ويا لسخط إلهك الأبله أنْ تشربي لذاتك المجنونة حتى الثمالة. . وأن أرث رحمك المضروب، أن أحمله في أحشائي وعلى ظهري كسفينة محطمة وسط الصحراء. .

آريان. . آريان. . يا أخيّة. .
يا ابنة حزني وشبابي القليل. .

كم كان الوقت كثيفاً وحقيقياً. . كم كان ينتظر، كم كان يرى. كانت ليلة واحدة أدلف بها الى غرفتك تكفي. . كان القليل من الحنكة يكفي، كي نطفىء الأضواء ونخفض الصوت، نكتم الضحكات ونتكلم كثيراً. . كانت ليلة واحدة تكفي حين كنا صبيتين صغيرتين لأن أخبرك كل شيء، لأن أسرّ اليكِ بمخاوفي وهواجسي واحلامي واسراري الكبيرة. . وكنت أفرغ. . كان الوقت مثل وعاء. . أتكلم فيمتلىء. . يمتلىء حتى حافته. قبل بزوغ الفجر.

أي وقت يفرغني الان، آريان، حين لم أعد أملك الحكاية. . حين لا بدء لي ولا انتهاء. . حين ينفرط الوقت والكلام من بين أصابعي كزئبق شديد التلويث. . كم توزعت، تفتت، ثقلت،

تكثفت وصرت غبار هباء، كم صعبت، استعصيت، انفرطت، تبعثرت، تشعثتُ وكم صرّفني فعل الوقت المسخوط..

أي حبال يمكنها الآن أن ترفع منطاد قلبي؟

أي رواية أو شكوى يمكنها الآن أن تفك طلاسم خلاياي؟

آريان.. مع الوقت يمضي كل شيء.. أنتِ الى خيطك، وأيامي الى الطفو على سطح الآنية كالسمك الميت...

شعركِ الفضة الطويلة التي كنت أسرّحها على شرفتنا، الى ضفيرة اللّجة العميقة.. وصوتي الجميل الذي كان يتلاعب ببخار المياه الساخنة الى حمّام الوقت المثقوب الذاهب الذاهب الذاهب... جلدي.. آريان.. أتذكرين بهاء التماعه الحليبي الذي كان يفرقع فقاقيع الصابون، انشداده الرخامي من عنقي حتى أعلى الفخذين.. ثدياي الصغيران المشدودان كمهرتين شرستين مربوطتين الى حائط..

كل هذا هراء.. آريان.. هراء..

إنني حين أصغي إليه أسمع وقع أقدام فيلة الرب البعيدوهي تطحن عظام الخلد الراكض بين أثداء نساء بابل..

إنني حين أصغي إليه أرثي لعشقي الغبي الذي يبدو كهرّ هرم خارج لتوه من الماء..

إنني حين أصغي إليه أسمع تفجع جناجر منشدات الكورس اللواتي يبتعدن في ممشى ضيّق أرى في آخره إيبوليت يمشي على صفحة المياه..

إنني حين أصغي إليه أرى عينيّ الباليتين تريانه يخلع أثوابه

ويذري رماد نظراته الراكدتين في أمواه قلبي . .

أرى جسدي عليّة تنزل عنها الحقائب المبقورة بانتظار الرحيل الى نبوءة كاذبة . .

أرى يدي صارية مكسورة في ملوحة الموج، تتحول إلى فحمٍ تحت شمس جسده الحطّابة . . .

آريان . .

إنني أرى رماحاً حمراء كثيرة تخرج من جحيم عشقي إليه . .

أرى جسدي حين يقتله العمر، باباً أسود يقفل رتاجه على قلب يتم لمراتٍ أبدية أخيرة . .

أرى دماً لن أنزفه لا في ولادة مقطوعة ولا في عذرية بائدة، دماً يغطي جسده الهارب كسيف ذهبي، يفتح قلبه المقفل المستغرق في تجاهله وشبابه . . .

أرى يديك تسندان حطام موتي فأصرخ بصوت عظيم:

إني قتلته.

ليس من مكان أشد رهبة وفراغاً من ساحة المعبد القديم الخلفية حيث كانت الصبية الصغيرة تلتقي رفيقاتها سراً، بعد درس الإنشاد، ليتكتكن بأمور المرأة والرجل، وبالأمر الذي بينهما. ولم تكن الصبية تدلف إليه الا بعد أن تتأكد بأنهن قد سبقنها، وبعد أن تتنصت الى قهقهاتهن المكبوتة التي ترافق لعبةَ «المحظيّة والسلطان».

كن يجمعن أوراق الدفلى الحمراء الصغيرة، يضعنها في أكفهن، يمزقنها الى قطع صغيرة، يفركن بها وجه المحظية وشفتيها.. ثم يدعكن رجليها ويديها بالوحل الأحمر الناعم على أنه حنّاء «المدنية»، ويمررن، وهن يرددن ما حفظنه خلسة على لسان نساء «التحضيرة» وعلى لسان «أم الصّفي» الحمّامة، يمررن بلحظات سريعة يصدقن فيها ما يقمن به، فينصعن بسرعة وجدية لأوامر الكبيرات، العارفات منهن...

انتظرت شجرة الدر كثيراً ولكن رفيقاتها لم يوكلن إليها دور المحظية ذلك أنها كانت فارعة الطول والهزال.. وصدرها كصدر الصبي، خالٍ تماماً حتى من انتفاخة بحجم الجوزة الصغيرة. كم مرة رفضت القيام بدور السلطان ثم قبلت به تحت طائلة الإبعاد والعزل.. كانت تكره تكرار الدور خاصة عندما تُقدَّم المحظية لها

أو له، ترفع يدها الى البرقع وتمر بكفها على وجنة الصغيرة ثم على رقبتها وكتفها فتنفجر الفتيات بالضحك ازاء ارتباك السلطان وخجله فيتحلقن حوله هازئات مقهقهات ويتبعثرن فرادى وأزواجاً بعد انفراط الحلقة. . .

يا لقسوتهن!

ليس من مكان أشد رهبة وفراغاً من ذاكرة شجرة الدر. . .

بين ثدي المرضعة الحبشية وبيت «الجدّة» ذي السماء الداخلية المكونة من دخان البخور، كانت أشباح تسكن روحها الصغيرة القلقة فتزداد شحوباً والتصاقاً بالزاوية وهن يصرخن بها أن كلي واسمني علّ ربك يشفق فلا تموتي كجرذ تعسٍ. . ارفعي صوتك بالغناء، ادفعي بردفك يا شقيّة فليس عند «الجدّة» من ينتهي حرجها الى كوم البصل. .

يا لعيني تلك «الجدة»، لا بل يا لعينها!

«فالجدة» كانت تنظر بعين واحدة وتغمض الأخرى باستمرار وكأن لا حاجة لها بها، أو كأن العين الأخرى كانت تعطل عليها صفاء الرؤية. وسواس دخل رأس الصبية حين استبقتها الجدة قربها وطلبت إليها أن أخلعي ثيابك وقفي بلا حراك. .

وسواس دخل رأس شجرة الدر حين أسرّت لها الجدة بأن لم أعرف امرأة في مثل جمالك. . فجسدك شجرة تحمل دراً للعين واليد والشفة. . اريدك في أبهى حللك غداً فالملك قادم لانتقاء اللواتي نضجن في سلتي. . ثم قالت الجدّة: لا تنيمي رأسك على جسدك يا شجرة الدر. . إن في عينيك شرراً أشد فتكاً من شرر سمرتك المتوهجة. .

حين اطبقت الداية الشامية رجلي وقالت ولدت غلاماً. . بدأت ثقوب تتفتح في روحي بهواجس لم أكن أدركها لكنني أحسست بأنني أمسك جيداً بطرفٍ ما. .

اعتقني مليكي «الصالح» ولم يكن ذلك من أجل اني ولدت له «خليلاً» بل لأنه كان حين يدخل سريري يشعر أن رأسي نافذة مفتوحة تطل منها آلاف العيون الشاخصة القلقة. . وكان هذا يخيفه، أراد اغلاق النافذة فقلت حسناً. .

أخذت ابني من المرضعات وجعلت أعطيه لبني الذي كنت يوماً بعد يوم أحسه يخرج أحمر مصفىً من عروقي الشقية المفتوحة الصابرة على مرض أجهله.

ولما كان «الصالح» يغيب. . كنت أخرج الى شرفتي الخالية وأنظر تلك المدينة التعسة التي أقفلت رتاجها على حرب الافرنج وعلى أفكار رأسه الصغيرة. .

ذات مساء قلت. . كيف يمضي بك العمر أيتها المرأة الغريبة الشان. . . كيف يمضي بك العمر ولا تعرفين العشق الذي ينشده المنشدون. . لم أجد جواباً. . نظرت حولي فلم أجد في الرجال الذين كانوا يدورون حول غرفتي وأدور حول هواجسهم سوى اجساد ثابتة لا يتحرك فيها سوى ذكورتها المتشابهة المتكررة المشتعلة الذابلة. فقلت. .

قلت آه.. شجرة الدرّ حتى متى تخفين على نفسك عقوق الأم. .

ها «خليل» يركض الآن في أروقة القصر بعيداً عنك فلا تلحقين به. . يلهو بكل ما تقع عليه عيناه وما يقع عليه لسانه. . وهو،

تعـرفين، لن يلبث أن يصبـح رجلاً، يشبـه قليـلاً أو كثـيراً رجـال القصر بكـروشهم المكـورة وكلماتهم البـذيئـة ووشـايـاتهم الصغــيرة وأعينهم اللامعة بالشهوة الغبية كعيني قط الشارع. . .

هل أنتِ امرأة السبـاب البيتي والغيرة من الجـاريات الصغـيرات ومعالجة الزوج بالبهار ودلك الثديين بالعطور. . . ؟

هلاّ لحقت يوماً بحلم وجعلته حلمك. .

كم مرةً كنتِ مملوكة يا أم خليل أيتها المرأة المسكونة؟

ـ لن أحصي. .

العدد وهم لذا لا بد أن أكون أول الأرقام.

باصبع من يليق إذاً هذا الخاتم يا أم علي يا زوجة عز الدين؟ لا مكـان عـلى هـذه الأرض الصغـيرة لمشـاركتي في ملكي. . ألا بـد، خلف سترك، من هذه الابتسامة الهـازئة؟. . . تمـوتين حـرقة وأنتِ تنتظرينني، تتركين لي مكانـاً أترهـل فيه قـربك حيث سيفسـد دمي وئيـداً وأنا أنـظر وإيـاكِ من رواق العمـر الى الصغـيرة القـادمـة الى مضجـع زوجنا ذي الخصيتـين المباركتـين. . . يا أم عـليّ، يا امـرأة الكلام الذي يمـر تحت قنطرة الخشيـة والحسبان والتفصيـل والسلف والسيف المسلّط. .

اني، ولا أب لي، اقفل باب انتسابي لمملوكية الحرم أضرب رجلي في الأرض وأحـلّ الربـاط لمزاجي الملكي، أرسـل أبخـرة استيـائي وقصاصي لتؤدب زوجك الذي جرؤ حلمـه أن يحاذي عـرش شجرة الدر واشرأبت رغباته خارج سور رأفتها. .

يا أم علي. . أيتها العجوز القاصر. . .

أنـظري الينا.. جنس بكـامله، منذ آلاف السنـين.. مـلايـين الـرقاب المكسـورة، الشعور الكـانسـة الأرض، الأثـداء المنهـوبـة، البطون المبقورة من رأسها ومن أسفلها..

أنظرينا: جنس بكامله.. سماد للجنس البشري المختار.. سماد لأشجار الفحولة الباسقة، أتربة لطمي نهر التاريخ الأعمى، أوعيـة لفاكهته الملكية..

يؤلمني شكّي، لست أؤمن بتركة الله هذه...

أحتضن النخلة كمـريم وأبكي بكاءً مـراً.. أصرخ حتى ينشف حجاب الليل ثم أنظر بين فخذي فلا أجد سوى شكي المقـرور.. ألفه بخمار رأسي ليدفأ وأنظر وأنا أهدهده الى البعيد..

هذه أرض محروثة.. تمشي عيناي:

أفقيـاً.. ثلم.. حتى نهايتـه.. أستـديـر.. ثلم آخـر.. حتى نهايته.. أستدير ثلم آخر.. أدوخ ولا أقطع المسافة الواهية..

هكـذا أبـداً.. أثـلام كثيرة وايمـان قليـل والأفق أمـامي بعيـد وجميل، وقلبي يرف كغزالة كسرت رجلها والليل دائمـاً على وشـك الوقوع...

ثلم وراء ثلم وراء ثلم.. والتاريخ لا يمشي أفقياً ولا يستدير.. لا بدّ من رجلي رجل لاجتياز الحقل أيتها الزارعة الحزينة.. لا بـد من عينين جسـورتـين لا تنـظران سـوى الأفق فتـأخـذان الـطريق الأجدى إليه...

أنـا.. شجرة الـدر.. أرى تاج أرض النيـل يـترنـح بـالسقـوط والتشظّي إن لم يرفعـه رأسي البهي... وأجد اسمـاً لعشقي التائـه

كذئب يراود مدينة فأرتجف خوفاً ورغبةً وأسرّ: يـا لعظمتـك أيتها المرأة القليلة، يا لالحاد رأسك ويا لفراغ عينـك وأنت تنظرين تلك الشعلة المقدسة التي لاتفارق أحلامك الهاذية. . .

أسميها عشبة هـذا الكوكب المستـوحش. أقف عليه وابـاعد مـا بين قدميّ وأنتظر. . أراه يسرّ لجسدي بأسراره الكثيرة أتلقـاها بقبّـة رحمي. .

أنـا كوة هـذا الكون الليـلي، قمر هـذه الكـرة العـظيمـة. ألبط شمس الفحولة من نهاري. . فأمتد وأجزر بسرّ مياهي. .

أحيض بالمحيط وبالجبل. .

أفطم روح الجماعة، جنس الشعب عن ثدي العادة السارية.

إن كان من امرأة لذكورة هذا النهار فهي أنا. .

أنا المرأة ـ الحيوان ـ الطبيعة ـ النجم.

إذا ما خارت بقرة في حقل أو اغتبطت نحلة في رحيقها، إذا مـا ارتجفت أوركيديا في ثوب الغواء، أو اختلجت نار في بطن بركان. . إذا ما انتهرت مـوجة سمكـةً أو انزلق بـطن بزاقـة على حبـة رمل، استملتُ أنا خلد العالم ذبذباته البعيدة. . .

إذا مـا ولد نجم، أو فـاض عن حوافيـه نهر، إن ارتعشت قـارة بعيدة، أو قرض جرذ حبل سفينة تحت شراع قرصـانها، استلمت، أنا، بريد العالم رسائله السريّة. . .

إني أشم، أسمع، أتذوق وكأني الحامـل الأبديـة المصابـة بشهوة التراب. . أعرفـه ولا أحد مثـلي تعود الـوقوع عليـه، لعقه واشتـمام رائحة الأمطار الأولى. .

كل صغار هذا الكوكب جنودي.. كل مملوكيه عساكري وامداداتي السريّة.

والله، لو غرقت بدمي تحت قباقيب الحسد ونعال الغباء والضغائن الصغيرة، سأبقى ملكة مصر المضيئة، المقطوعة عن تاجها، وسأسكن طمي النيل، ونسغ النخلة ونوايا النجم في هذا الكون المضلل وأعلن عشقي المأثوم لذلك الهاجس المشتعل.

بنيلوبا

فتحت بنيلوبا نافذة غرفتها وشكلت الستارة بـالمزلاج الخشبي ثم اقـتربت كثيراً من الحـافة وتـركت لصدرهـا أن يمتـلىء بهـذا الهـواء الصباحي النقي المشبع بنداوة السهل المترامي حتى الأفق. مسحت بأصابعها فتات النعـاس العالق بـأجفانها ثم استنـدت بذراعهـا الى حافة النافذة وأخذت تنظر . .

كان السهل واطئاً وبعيداً وشديد التكرار. فقط بقع من الأخضر المتفاوت الدكنة، تكبر أو تصغـر . . بعض البرك التي تـرسل وهجـاً دائـرياً يمـاري غيومـاً بيضاء عـابرة. اعـتراضـات قليلة من الشجـر الأرجواني الذي رأى ألا ينتظر اكتمال دورة الأرض، تتحرك أحيانـاً وبمحـاذاته، وببطء شـديد يصعب معـه تميّز الحـركـة، قـطعـان من الماشية لا يظهر على بنيلوبا رعاتها الذين قد يكونون مستلقين في فيء شجرة وقد عاودهم نعاس الصباح، أو يكونـون مندسـين في جلالي الكروم القريبة باحثين عن عناقيد متأخـرة لم تنفذ إليهـا بعد حـرارة الشمس. فقط، رفوف الطيور التي تعبر مسرعة، محدثة جلبة لطيفة بجـوانحها النشيـطة هي الحركـة الوحيـدة التي تقطع سكـون هـذا السهل.

خـدر بسيط يسري ببطء في ذراعي بنيلوبا فـترفع سـاعدهـا عن

النافذة وتشبك أصابع يديها، تمدهما الى الأمام وتتمطّى. شعيرات صغيرة من صوف ملّون عالقة ببعض أظافرها. تسحبها وتتركها في الهواء فترتفع ببطء ثمّ تتهادى يدفعها برفق نسيم السهل الى الداخل.

تترك بنيلوبا النافذة. طرق على الباب. تأتيها خادمتها بطشت الماء وأدوات الزينة الصباحية. تحني رأسها وتخرج..

منذ أعوام كثيرةٍ، ويوماً بعد يوم، تستقبل بنيلوبا صباحاً واحداً يتكرر لدرجة أنها لو أغمضت عينيها لما أخطأت تفصيلاً واحداً. فقط هي بقعة الأشعة الدافئة التي تغيّر مكان استلقائها على السرير تبعاً للطقس والفصول ومزاجات السماء.

تقرّب بنيلوبا كرسيها من النول. تمسك بابرتها الطويلة.. تتأكد من ملاءمة مصدر الضوء النهاري لوضع الآلة الكبيرة.. هذا هو وضعها الصحيح في هذا الفصل من السنة. تتفحّص بابرتها انتظام الخيوط على الأسنان المتراصفة. تمسح بيدها غباراً خفيفاً علق ببعض الأسلاك.

لقد كانت ثقتها بموضعها حين أوكلت بالمهمة الى ذلك الحرفي الحاذق. تلك آلة لا تفنى. ولا تخطىء ولا تدقر.. فقط تسير، بطاعة عمياء، حين تشد صاحبتها الرسن الرفيع الملوّن. خشبها المصقول كالرخام ما زال يحتفظ بلمعته العقيقية الداكنة بل وبرائحة غابته.

تشدّ بنيلوبا الصف الأخير وتبدأ بالحياكة.

فيما مضى كانت بنيلوبا فتية، وكانت الحياكة ترهقها... كلما اقتربت من الآلة الملكية كان يحضر الوجه الذي غاب.. كانت

تنسج بأصابعها، وبقلبها. تنسج وتفكّر وتشتاق وتغضب.. تنسج وتكتسب حكمة متعبة..

كانت كلما اقتربت مِن نومها يحضر وجه أوليس البهي..

وكلما تكرر جلوسها الى نسيجها الذي لن ينتهي، الى حجتها الواهية، رفرفَ فوقها ما يشبه النعيق وابتعد الوجه الحبيب.

ما من رجل لا يمضي حين يرانا.. يلقي إلينا ببذاره الإلهي ويربطنا بعقلة المكان.

ما من رجل يمكث بعد أن نخرج إليه من غيمة الاحتمال.. بعد أن نقشر له قلبنا كفاكهة طازجة.. بعد أن نسلمه مفتاح الجسد وما تحته...

يا للقسوة..

أن يبقى، كمن يطلب اليكِ أن تقفي بين الماء والبلل. بين حجر الرحى والطحين بين اللسان والكلام.

أن تتخذي كالسائل شكل خياله، وأن تفسدي كالسمّ هذا الخيال.

يا للعبة الفاسدة ويا لقصر الحياة.
اخترع لعبة لمائدة يخترع لعبة المملكة.
اخترع لعبة الخرز وزهور الآنية وبرتقال الستائر.
يخترع لعبة الأصدقاء وهمّ المواسم وروزنامة المبارزة.
أخترع الطفل وسريره الهزّاز وأرمي صنّارتي.
يخترع حزباً.
يلمّ أسلحته ودروعه من زوايا البيت.. انظر باستخفاف. ولد

فوضوي يلم ألعابه. يرفعني كغطاء سرير تدلّي ويتابع، يقلبني كجيب سترة فارغ ويتابع، يصفقني كجارور عصيّ. وحين يصل الى الباب ينطر إلي بعينين حزينتين دامعتين منكسرتين.

يوصيها بالطفل ويتركها رهينة لديه.

ثم يقف منتظراً ما يتوجب على امرأة البطل أن تفعل فتفعل: تعده أن تنتظر.

وحين يبتعد في السهل الواسع تحت ضباب كثيف يؤقت له كي يزيد في قلبها اشتعال الفراق ونقاوة الوعد وانطباع الصورة، يرافقه صرير دروعه الكثيرة ودموعها العاشقة الصافية، يلتفت التفاتة أخيرة، يرفع يده القوية، سلطة الحق وحافظة شرفها، باتجاه نافذة مفتوحة فيها خيال امرأة يغيب خلف الرطوبة الداكنة...

يتأكد من فراغ هذه المرأة المطلق...

ويغيب...

وبنيلوبا ليست امرأة عادية.. تحسست مساحة جسدها فوجدت أن له حافظة وفضاء ممغنطاً: إنها ملكة. الملكة هي آخر من يغادر مربعه في حال كحالها. وقالت. حسناً إن كان لم يبق لي سوى الانتظار فلأتقن انتظاري كملكة.

كان سهلاً في البدء استحضار الوجه الغائب.. وسهلاً النظر الى السماء وانتقاء نجمة وتحميلها رسالةً عن لوعة الفراق، علّه، وهو يرتاح مستلقياً بعد حرب النهار، ينظر إليها ويستلم الكلام المعاتب الحنون.

كان سهلاً فيما بعد النظر الى الطفل يكبر ويشبه أباه. يكبر ويصبح قوياً. ولكنه كان كذلك يكبر حتى يكاد يملأ درع

الرجال.. تكاد ذراعه تحمل سيفاً فيشبه أباه كثيراً.

كان أوليس كلما ابتعد كبرت حربه وضاقت تفاصيل وجهه حتى صار يصعب على بنيلوبا المثابرة استحضاره عند مزاولتها لنشاط التذكر، حتى صارت كالحشرة الدؤوبة التي تخونها الغريزة التي لا تملك سواها.

صار الانتظار كنفق مقفل في نهايته.
صار الانتظار كعصفور يذبل على وردة محنّطة.
صار الانتظار كتفاحة مطلية بالكلس ومسدودة.

تعقد بنيلوبا طرف الخيط. تتأكد من متانة العقدة. تشدّ الممسك الخشبي وتتابع.

إننا الآن كالتوأمين السياميين. سجادتي وأنا.

انتقلت من أوليس إليها.. من القصر إليها.. من غرفتي إليها.. من جسدي إليها..

لنا كل الوقت. لنا وقت كبير وعميق وواسع. لنا وقت مرن وقوي وحرّ.

لنا وقت النسج ولنا وقت الكرّ.
لنا وقت الرصف ولنا وقت النقض.
لنا الغشّ ولنا اللعب ولنا حرّية السرّ.

لنا كل ما نختار أن نرافقه. أن نودعه. أن ننتظره يعود. يشتعل ويخبو. يضمر ويعلن. يحسن ويخطىء.. ولا يلزم سوى القليل من الانتظار.

ننتظر الرقم فيصل. الصبح فيبزغ. الفصل فيجيء. اللعب. مثلاً: هذا الخريف.

نقعد له:

إنـه من نافـذتي: فصل منقلب عـلى ظهره. تـارةً ترتجف بحـدة أطرافه الدقيقة وطوزاً تستكين.

إنـه من بابي: بـابٌ، مصيدة للعـابرين. مسـاحـة مكسـورة الى اثنتين واحدة لامرأة تكنس، وواحدة لقفل الفلاح.

إنـه من نهاري: صورة لشمس سـائبة، للهـو الصيف البـائت. لصفصاف الضجر.

من مسائي: فتات مائدة مرتبكة. كرْم العيون الحاسدة.

وغشاء حافظ لعناقيد الخيال، لخمرة الشتاء...

من ليـلي: قمرٌ. مضيعـةٌ لعتمـة الكــون. وسـواس الــبرك الضامرة. قمرٌ: جرسٌ، علفٌ للوقت.

أرأيتم اللعب؟..

خريف لي: أنتظره ويأتي وقد يقعد في بيتي مؤونةً.

أنـا والنساء.. أنـا والنساء، سمكـريات الحقـول اللواتي يمـددن قساطل النسغ ويوصلن الفاكهة الى عليّـة الشتاء، حيث بقليـل من النـظام يصطف متـأهباً صف المربيات والمكـابيس ليبـدأ عنـد أول صفارة للريح، بنطفه السكري، وخلّه حيض الفساد، ليبدأ اختماره الداخلي البطيء.

أنـا والنساء.. أنـا والنسـاء أنـزيمـات الحيـاة المباركـات. نحن العلانيات على السطوح، تحت فضلات شمس أخيرة ننحني ككتبـة الفراعنة، ننقش الشتاء حرفاً حرفاً:

الصعتر: هباء البريّة

الكشك: خداع لثدي الطبيعة
القمح: حكمة الجسد
العدس: عين لديك الصحة الرائقة.

نحن المحتفظ بهن وراء الأسوار من أجل حروب جيدة.. نحفظ الحياة في خليتنا لذكور النحل الطائشين:

سرّيات: ننفث كالكاهنات الغذاء الفحل في الخلايا المفتوحة:

اللبنة: كريات الشهية، بويضات الرضاعة الموسمية.
الزيتون: غبار مجرتنا الأخضر
خشب الزمان الإغريقي المقدس
رهبة الذاكرة الدينية وقربان النذور

الزيت: محرقة لحراريات الرغبة الآتية بريق لشحوب سلاطات الزينة كفّارة لذنوب التوابل..
يا للعيد!

ماذا لو أتى أوليس الآن؟!
يا لفضيحة اللقاء!

لقد انتظرت بنيلوبا كثيراً ولكنها أحسنت الانتظار.

ما الفرق الآن، أوليس، بين وجهك والسجّادة.

لقد توحدنا نحن الثلاثة الآن، بي. توحدنا بي. لا السجادة تكتمل ولا وجهك يكتمل.. فقط ما إكتمل كبدر حزين هو حكمتي..

لقد عرفت لكثرة ما نسجت وكرّيت أن الحياة ليست سوى ذلك النسيج الجميل، ذلك النسيج الغبي لأشياء نكرّها في الليل. نكرّها

في الليل لننسجها في اليوم التالي.

وأن الأمر لا يتعدّى أن يكون: في الليل.. وفي اليوم التالي. وأن الانتظار المفتوح المعلن ليس سوى تلك الطريق الواضحة الى القبض على الوقت. الى رفع الكأس وشرب نخب الوقت. الوقت الملآن كما الوقت الفارغ. أي حكمة الوقت إذ.. مع الوقت يمضي كل شيء. فقط، يكفي أن تغمض عينيك، وسيعرف، دون جهدك المغرور، كل شيء طريقه:

البذرة الى الوريقات والدودة الى قلب الثمرة.
القمر الى ليله والوحشة الى ذئبها.
المسمار الى الخشبة والنافذة الى الطريق.
الخيط الى الإبرة والنار.. الى اشتعال الظنون.

يكفي أن تحط الحمل عن بغلتك الحرون.. تمدد رجليك، تغمض عينيك حتى ترسل لك نجمة، ماتت منذ ملايين السنين، ترسل لك ضوءها الى الآنية.

يكفي أن تستسلم للموجة الهادئة حتى تحيك لك الأم الحكمة بطانيتها الدافئة..

حتى يصل المزلاج الى العارضة والسحّاب الى قفله، والزر الى عروته والستارة الى صورة الزجاج.. والشوق الى الهباء.

وحتى تعرف أن ليس ثمة فرق كبير بين الشعاع والمرآة، بين رخام النواميس وزنبقة الجبل، بين الفكرة النيّرة وقبعة العسكري.

أن ليس ثمة فرق كبير بين اليد وقبض الريح..

لذا أرفع كأسي تحية للجبناء الحثالة الهاربين من المعارك، للجبناء

صغيري القلوب الخائفين الملتصقين بأفخاذ نسائهم الدافئة، حارثي حقـولهم وآكـلي لقمتهم الـذليلة المـرّة. . . بخجـل العـذارى الجاهلات. أرفع كأسي وأشربها في صحتهم.

أوليس. أيها الرجل الحلم. . . أيها الحبيب.

لقد حفظت الوعد. لبثت في انتظاري، في نقاوتي القـديسة. في فراغي البلا دنس. جهزت كل ما يلزم، خلف أسوار الأمن ونقـاوة الذرية، لحرب جديدة.

لم تمسني فكرة لم يمسني رجل. لم يمسسني قلق مجنون.
لقد كلّست الطهارة روحي فصارت كبيضة فارغة.

إني أعفيك من عذاب ضمير لا يزال يصل إليه عـواء الزوجـات الوحيدات.

ولا فرق الآن أعدت من حرب مقدسة
أم متَ في هزيمة لعينة. .
فقد أصبحتُ بنيلوبا. . امرأة السجّاد.

الفهرس



دار المطبوعات الشرقية